عماد الدين إبراهيم

تداعيات الذاكرة المطرية

مجموعة قصصية

الإهداء

إلى من أدَّبه الفقر

و هذَّبه الغنى

فصار كالسنابل الممتلئة

ينحني تواضعاً

تداعيات الذاكرة المطرية

(ماذا تفعل هنا في مثل هذا الوقت ؟) تناهى إلى سمعي فجأةً صوتٌ ضعيفٌ و عميق , و أنا أعبر بيتاً طينياً قديماً متهدماً فأثار الهلع في نفسي , تلفت حولي مرتبكاً و غذذت السير , هل فعلاً سمعت صوتاً أم أنه خُيِّل إلي ؟ الساعة الآن حوالي التاسعة ليلا , البرد في شهر كانون الثاني قارس , و الغيوم تملأ السماء الداكنة و المطر يهطل رذاذاً بين الفينة و الأخرى , و أنا أجوس في شوارع و أزقة هذه البلدة , بين بيوتها و حاراتها , أتملَّاها ... أملأ عيني بها و منها , أدخل في زواريبها الضيقة المرصوفة بحجر البازلت الأسود , أتمعن في جدرانها كسائح غريب , الناس تقبع في بيوتها في مثل هذا الوقت , و ربما تكون نائمة في أسرَّتها الدافئة , أو ملتفة حول المدافئ التماساً للدفء و هي تتابع مسلسل السهرة اليومي , أما أنا فأتمشى .. أتقصى .. أتعرف إلى البيوت و الحارات و الجدران و الشرفات و النوافذ المضاءة من خلف الستائر .

اخترت التجول في مثل هذا الوقت هرباً من الناس , لا أريد رؤية أحد منهم , فقد اعتدت الوحدة و أصبحت أنفر من الناس .. من أحاديثهم .. من كذبهم و نفاقهم .. كثيراً ما كنتُ ألوذ بغرفتي المنفردة بعيداً حتى عن أهلي , أب و أمي و أخوتي , و ألجأ إلى الكتب .. أقرؤها و أعيش معها , الشعر و الروايات هما ملاذ روحي المحبب , معهما أعيش , و في عوالمهما عوالمِ الخيالِ أسرح و أسبح , أعيش قصص أبطال الروايات في غرفتي , و كما قال أحد الكتاب الروس و أظنه تولستوي : (الأدب عالم الحالمين) , و أنا حالم .. نعم حالم و مستغرق في الحلم , حينما تخذلني الحياة ألجأ إلى الحلم , فيه أفعل ما أريد , ألون الحياة بالألوان التي أحبها , أصوغ الناس كما أريد , أكونهم كما أحب .. صادقين .. واضحين ,, محبين كما في الروايات و قصائد الشعر .

بدأ المطر بالهطول .. رذاذ خفيف يتساقط على مهل , لا يهم فقد ارتديت ملابس تقيني هذا المطر مهما اشتد . كنت أتوقع ذلك .. لا بل أستمتع بالسير تحت المطر طبعا هذا الجو الرومانسي ورد كثيرا في الروايات , العشاق يسيرون تحت المطر متشابكي الأيدي يتهامسون , قرأت عن ذلك كثيراً و ها أنذا أطبقه و لكن وحيداً , أستمتع به , لمْ أستعجلْ في سيري بقيت متمهلاً مستمتعاً بالمطر و الليل و رائحة الأرض , بالنجوم التي تظهر في بقعة صغيرة من السماء انزاحت عنها الغيوم , و لكنها سرعان ما تختفي و تبتلعها غيوم داكنة سوداء تزيد من تجهُّم الجو , وصلتُ الآن قرب البرج الكبير , هذا البناء الأثري الجميل الذي يتربع فوق تلة مطلة على كل الجهات , تنفرش حوله الوديان و السهول ,الأزقة مرصوفة بحجارة البازلت السوداء منذ عقود من الزمن يُسمَع عليها وقعُ خطواتي

البطيئة , تأملت البرج في علوه , تأملت شجيرة صغيرة أظنها شجيرة بُطْمٍ نبتت على جدار البرج , تمد أذرعها نحو السماء و كأنها تستغيث خشية السقوط , لكنَّ جذورها متشبثة بالصخر و متمسكة به بقوة , تتمسك بالحياة رغم وجودها في مكانٍ غريبٍ و غيرِ عادي , بعكسي أنا القانط البائس الحزين , كثيراً ما فكرت بالتخلص من حياتي فلا شيء يسعدني فيها باستثناء الكتب .. القراءة هي الشيء الوحيد الذي يبث في نفسي شيئا من الأمل و لا شيءَ غيرُ ذلك , و أنا أهجس بهذه الأفكار وصل إلى مسمعي صوت عزف على آلة العود , آه ... يا الهي كم هو جميل هذا العزف , يصل الصوت الي ضعيفاً , و كلما اقتربت إلى الأمام يزداد وضوحاً و ارتفاعاً , انه لحن أغنية (يا مسهرني) لأم كلثوم يعزفه الأستاذ يوسف على عوده , انه أستاذي الذي يعلمني الموسيقا .. الموسيقا التي أحبها كثيراً , حاولت تعلم العزف على آلة العود على يديه , و قد شجعني كثيراً عندما سمع صوتي و ألحَّ في ذلك , كان يطلب مني أن أغني في درس الموسيقا بينما هو يرافقني بالعزف , لكن الفقر منعني من امتلاك عود , حزنت كثيراً و لكن لا خيار , وقفت قرب الجدار أستمتع بعزفه و أفكر : هل أطرق البابَ و أدخل .. فنجلس سوية , هو يعزف و أنا أرافقه بالغناء لأنني أحفظ الأغنية جيداً , أتلذذ بسماعها بصوت أم كلثوم حيناً و بصوت سيد مكاوي ملحنها مع آلة العود حينا آخر .

أطلت الوقوف قرب الجدار و أنا استمع للعزف الجميل , و فكرة الدخول تراودني , و أتردد ما بين إقدام و إحجام , صحيح أن علاقتي بالأستاذ يوسف ممتازة , و لكنها لم تتعدَ علاقة الطالب بأستاذه ضمن المدرسة , بالتأكيد لو طرقت الباب سيستقبلني .. ربما خجلاً أو مجاملة , هو يعيش وحيداً مع عوده , لم يتزوج , عمره ينوف على الخمسين , لقد تفرغ للفن و للموسيقا و تدريسها , لكنه لم يحقق شهرة كبيرة , هو معروف في هذه البلدة و ربما على مستوى المحافظة لا أكثر , أتخيله الآن حين كان يحدثنا عن الموسيقا و الفن , كان يشرد بعينيه بعيداً , خاصة عندما يشرح لنا موسيقياً بعضَ الأغنيات , و يعرفنا إلى مطربيها و ملحنيها و مزاياها الفنية فيظن نفسه واحداً من أولئك الملحنين المشهورين فيضيء وجهه , و تلتمع عيناه , و ينجلي صوته واضحاً .. واثقاً .. و فرحاً .. و كأنه يقف على خشبة مسرح كبير و أمامه جمهور عريض . و عندما يصل إلى نهاية الشرح و يرى نفسه في قاعة الدرس يتحدث لطلابه و خلفه السبورة تخبو عيناه , و يتحشرج صوته و يضعف , و يعود إلى واقعه الحقيقي الذي نسيه لدقائق .. واقع أنه أستاذ لمادة الموسيقا في هذه البلدة النائية .

توقف العزف على العود .. لا بد أن الأستاذ يوسف شعر بالنعاس و سينام , الساعة الآن تجاوزت العاشرة ليلاً , حينها ابتعدت عن الجدار و أكملت سيري , المطر يزداد هطولاً , و أنا ازداد استمتاعاً به , معطفي الجلدي يحميني و الجزمة الجلدية تدفئ قدمي , و القبعة التي تقي رأسي , و صوت ارتطام المطر بأرضية الشارع يملأ الفضاء بضجيج جميل و حلو , تابعت سيري و أنا أفكر بالأستاذ يوسف , تُرى أيُّ حلم كان يحلم به عندما كان في مثل سني ؟ لا بد أن خيباته في الحياة كانت كثيرة , لذلك يفرّج عن ألمه و حزنه و فشله في تحقيق أحلامه بالعزف على العود . العودُ بالنسبة له كالكتبِ بالنسبة لي , هو يلوذ بالعود و أنا ألوذ بالقراءة , كنت أنفق ما أحصل عليه من نقود قليلة يعطيني إياها أبي لشراء لوازم المدرسة على شراء الكتب , متعتي أن أقتني كتاباً خاصة الروايات و المجموعات الشعرية , و حين يرى أبي ما اشتريت يُقرِّعني و يغضب , و يحلف أغلظ الأيمان أنه لن يعطيني بعد الآن قرشاً واحداً لشراء هذه الأوراق السخيفة و التافهة , كان يقول :

- أنا أعطيك من تعبي و عرقي و دمي لتشتري هذه السخافات ؟ ماذا تسميها ؟ روايات و شعر ؟؟!! أي روايات هذه ؟ و هل تفيدك في الامتحان ؟ هاه ؟

كان يقول ذلك غاضباً , و لكنه بعد مدة ينسى ما جرى أو يتناسى , و يعطيني بعض النقود لأنفقها كما أحب , و كثيراً ما كنت أخبئ الكتاب بين ثيابي حتى لا يراه أحد .

آهِ يا أبي .. أنت إنسان طيب و بسيط , أمضيت عمرك عاملاً فقيراً و ما تحصل عليه من نقود قليلة بالكاد تكفي لتأمين حاجيات البيت , أنا لا ألومك على غضبك مني , و لكن " سوسة " الكتب و القراءة تغلغلت فيَّ , إنها متعتي الوحيدة في الحياة , أنت لم تشعر بهذه المتعة , لا تعرفها .. لأنك لم تتعلم .. لم تجرب القراءة , الكتاب الوحيد الذي يلازمك هو القرآن الذي تعلمت قراءته على يد الشيخ في الكتَّاب , عشت حياتك في العمل و التعب و الفقر , لا فسحة للترفيه عندك , من الصباح الباكر حتى وقت العصر تكون في العمل , تصل منهكاً إلى البيت , تتناول طعامك , ترتاح قليلاً , ثم تقصد جارنا أبا نبيل لتجلسا معاً و تلعبا بالمنقلة , مع آذان العشاء تعود إلى البيت لتنام , لا سهر و لا قلق , التعبُ هدَّ حيلك طوال النهار . هكذا هي حياتك لا شيء فيها من الحياة التي كنت تتمناها .

لمع شريط البرق في السماء تلاه هزيم الرعد المدوي , و تناهي اليَّ مرة أخرى ذاك الصوتُ الضعيف و العميق : (ماذا تفعل هنا في مثل هذا الوقت ؟) تُرى هل يتبعني أحدٌ ما ؟ شبحٌ ما يلاحقني ؟ انتابتني رعشة خوف , و غذذت السير باتجاه البيت , الشوارع خالية تماماً , لا أحد يخرج من بيته في مثل هذا الوقت , في هذه البلدة النائية , ملأت

خيوط البرق صفحة السماء , و دوي الرعد يشقُّ الأرجاء من كل الاتجاهات , المطر يزداد غزارة , تساءلت في نفسي هل أركض باتجاه البيت أم أحتمي قرب جدار حتى تخف غزارة المطر ؟ المنزل ما يزال بعيداً , توقفت قرب محل (فواز) الحلاق تحت مظلة التوتياء على مدخل المحل , فواز هو حلاق الطلاب , رجل في أواخر الثلاثينات من عمره , أدواته بسيطة و محله متواضع , و لكنَّ يده خفيفة و سريعة ... ثلاث دقائق بالتمام و الكمال و يقول لك (نَعِماً) الكرسي تحت لم يسخن تحتك بعد , تناوله الأجرة و تقوم ليحل محلك شخصٌ آخر و هكذا , تنظر إلى المرآة .. لترى رأسك بعد الحلاقة , تستغرب .. تشعر بالغضب .. تقسم بينك و بين نفسك أن لن تعود مرة أخرى ... و لكنك تعود ككل مرة , لأن أجره أقل من أجر بقية الحلاقين .

خف سقوط المطر , امتلأت عيناي بالدموع , لا أدري من المطر الخارجي أم من مطرٍ داخلي انفجر في قلبي و عقلي و روحي , و أنا أهيم في هذه البلدة بين شوارعها و أزقتها ليلاً , و الفصل شتاء , و المطر و البرق و الرعد يراقبونني , أملأ عينيَّ منها , و أتعرَّف إليها , أتذكر خطواتي على طرقاتها , و عمري بين أحيائها , تُرى غداً أين سأكون ؟ هل سأنجح فيما نويت عليه ؟ هل ستذكرني يا أستاذ يوسف ... يا أستاذ الموسيقا في الحصة القادمة و تشعر بغيابي ؟ و أنت يا أبي هل ستشعر بالندم لأنك كنت تغضب مني و تلومني و تدعو عليَّ ؟

تنبهت أنني وصلت أمام باب البيت , بحثتُ عن المفتاح في جيوب معطفي , وجدته و هممتُ بوضعه في القفل , جاءني الصوت قوياً (أمسكت بك) .. لم أكد ألمس القفل .. فجأة اشتعلت السماء بياضاً , و دوَّى الرعد , و اهتزَّ الكون .

زيارة

كانت طرقة خفيفة على الباب , شعرت بتكاسل و تثاقل , متشككاً بأن بابنا يُدق , جاءت الطرقة الثانية خفيفة أيضاً , لكنها تؤكد أن بابنا هو الذي يُطرَق , كالنائم قمت , فتحت الباب :

- من ؟ أبي ؟! أهلاً بك يا أبي . قلت و المفاجأة تُدهِشُني .

- كيف حالك يا بني ؟

- بخير يا أبي .. بألف خير , و لكن أنت كيف جئت ؟ إنني مشتاق لك جداً جداً .

- أنت ولدٌ مَرضيٌّ يا بني .

- تفضل يا أبي .. تفضل , كيف حالك ؟ كيف العالم الذي جئت منه ؟

سألت هذا السؤال مرتبكاً و خجلاً , لأن المفاجأة جعلتني حائراً , نظر اليَّ مستغرباً كلامي و كأن بي لوثةً , و لم يجب , و بقي واقفاً مكانه على عتبة الباب , فأعدت سؤالي بلا وعي :

- كيف العالم الذي جئت منه يا أبي ؟

أعاد نظرته نفسها , و كأنه يقول لي : ما هذا الجنون يا ولد ... اعقَلْ .. اسأل سؤالاً مفهوماً . لكنه تجاهل سؤالي و سألني :

- كيف حال زوجتك و أولادك ؟ صمت قليلاً , و تابع قبل أن أجيب :

زوجتك امرأة صالحة اعتنِ بها جيداً .

- حسناً يا أبي هي أيضاً تحترمك كثيراً , ثم أردفت بسرور : هل علمت يا أبي ؟ لقد جاءنا مولود ذكر كما كنت تتمنى , انه يشبهني كما أشبهك أنا . التفت إلى الداخل و ناديت : أين أنت يا .... ؟ تعال قبِّل يدَ جدِّكَ , لكنني لم أرَهُ , عندئذٍ أخرجني أبي من حرجي و قال :
- نعم .. نعم .. أعرف ذلك , لقد رأيته انه ولد خير عليك , أخبرني يا بني كيف أحوالك ؟

فأجبت و السرور يغمرني :

-الحمد لله يا أبي .. الحمد لله , الديون التي كانت تثقل كاهلي سدَّدتها , و لم أعد مديناً لأحد , لا بل أصبح معي مبلغ صغير من المال يسندني عند الأزمات , و كدت أقول له هل تذكر عند وفاتك ؟ لم يكن معي أي مبلغ من المال لدفع تكاليف الوفاة و نفقات أيام العزاء , لذلك استدنت من أحد الأصدقاء , لكنني أحجمت عن ذلك , و قلت : أفكر باستبدال بيتي هذا الذي كنت تشعر بالضيق عندما تزورني فيه لأنه صغير جداً بعكس بيتنا في القرية المفتوح على الآفاق , لذلك أفكر بشراء بيت أكبر و أوسع , و الأولاد أيضاً كبروا يا أبي , هم يحتا ....

قاطعني أبي قائلاً :

-احمد الله كثيراً يا بني , كنت أدعو لك دائماً بالتوفيق , و ها أنت بحالة جيدة و هذا يفرحني كثيراً .

فقلت متألماً :

-آخ يا أبي ..لكنني رغم ذلك لست سعيداً , لست قادراً على أن أكون سعيداً .

قال لي مواسياً :

-لا يا بني .. لقد أصبحت أباً .. يجب أن تكون سعيداً كي تستطيع إسعاد أولادك .. و اليوم جئت إليك لأنني أعرف أن لديك مناسبة سعيدة .. أليس كذلك ؟

فعلاً كنت ناسياً , قلت مستدركاً :

-أووه نعم .. لقد تذكرت انه عيد ميلاد ابنتي .... حفيدتك التي كنتَ تحبها كثيراً , لقد أصبح عمرها عشر سنوات و هي تذكرك دائماً , و كدت أقول له لقد بكت عليك يوم وفاتك كثيراً , و أبكت كل الحاضرين و هي تطالب بك , و بعدما قمنا بواجب العزاء لسبعة أيام , و نحن عائدون إلى بيتنا هذا بدأت تبكي عليك في الباص , و تقول : أريد جدي . أين جدي ؟ و لأنني في داخلي أقول مثلما تقول , و أريد ما تريد , و لكنني أعرف أن من يموت لا يعود أبداً , و لا أستطيع أن أبكي في باص مليء بالركاب , فقد ضربتها حتى تسكت , أجل يا أبي , ضربتها أقول ذلك , و أنا خجل منك و منها و من نفسي , و لكنني لم أعرف ماذا أفعل حتى تتوقف عن البكاء , و حتى لا أجاريها بالبكاء لجأت إلى العنف و الضرب ... آآآه يا أبي .

- منحها الله العمر المديد و أسعدها ,, و وفقكم جميعاً .

أبي يقف على عتبة باب منزلي حاملاً على وجهه تعب السنين , تكبَّد مشقة السفر ليحضر هذا اليوم , فهو لم ينسَ عيد ميلاد حفيدته رغم ... و كد أقول رغم موته , كم هو عميق شعور الأب تجاه أبنائه ؟ و كم هو عصيٌّ على التفسير بقدر بساطته , حينها , و أنا أفكر بهذا الأمر , تجمَّع ألم الدنيا في قلبي و قلت ناسياً أن أبي مازال واقفاً على عتبة الباب :

-آه يا أبي ..... آه كم أشعر بالحاجة إليك , إلى وجودك قربي , رغم أنني كبرت و صرت أباً و لديَّ أولاد , و لكن تمر عليَّ لحظات أحتاج فيها إليك , إلى وجودك و حضورك , إلى الحديث معك يا أبي , إلى أن أتذكر طفولتي و الحديث عنها و أنت موجود و يسمعني أولادي , هل تذكر يا أبي عندما كنتُ صغيراً و مريضاً كيف أخذتني إلى عدة أطباء , و لكن لم أستفد شيئاً , عندئذ أخذتني لزيارة المقامات و ضرائح الأولياء و الصالحين لعلَّي أشفى من مرضي , هل تذكر عندما أردفتَني خلفك على الدراجة التي كنتَ تذهب عليها إلى مكان عملك , و ذهبنا في جولة على المزارات بين القرى ؟ آه يا أبي ... آه كم أحبك , و كم أريد أن أضمك إلى صدري , لقد كنتَ قاسياً علينا يا أبي , عندما كبرنا لم تضمنا إلى صدرك , ربما كنت تخجل مثلنا , نحن أيضاً نخجل من ذلك , فقد كبرنا و أصبحنا رجالاً , و نظن أن هذا الأمر يخص الأطفال الصغار , و هم فقط من يحتاجون إلى هذا الحنان , و لكنني الآن أدرك أننا – نحن الكبار - نحتاجه مثل الأطفال بل و أكثر . دعني أضمك الآن إلى صدري يا أبي , عندما هممت بذلك تذكرت أن أبي ما يزال واقفاً على عتبة البيت لم يدخل بعد , فقلت خجلاً منه و من نفسي :

- يا لَخجلي منك يا أبي تفضل ... ادخل .. لقد أخذنا الكلام على الباب و لم أدعُكَ للدخول .. تفضل هات يدك أساعدك ...

مددت يدي إليه , حاولت أمساك يده , و لكن ... لا شيء , لم ألمس شيئاً .. لم أجد شيئاً , كنت أمد يدي إلى الفراغ , غاب أبي عن ناظري , انمحى من أمامي فجأة كما حضر فجأة , قلت : هل عاد ؟ أيعقل ذلك ؟ مددت رأسي لألقي نظرة على الخارج عساني ألمحه مبتعداً عائداً , شعرت بصدمة مؤلمة , استيقظت من نومي على ألم الصدمة , فرأيت ولدي الصغير و قد صدم رأسي بقدمه , و هو يحاول المرور بقربي , كنت مستلقٍ على الأرض بعد تناول الغداء , و يبدو أن النوم قد غلبني , حينها انتابني شعور بخيبة الأمل الممزوج بالحزن , أصلحت من وضعية نومي , و عدت محاولاً استعادة النوم علَّني أستعيد حضور أبي .

حكي مؤجل

كان الصوت يلعلع صاخباً في أرجاء البيت المؤلف من غرفتين واحدة للضيوف نهاراً و النوم ليلاً , و الثانية تستعمل كمطبخ و غرفة جلوس , أمامهما فسحة طويلة تنتهي بدرج يرتفع صعوداً باتجاه الشمال , وقربه مرحاض يستعمل أحيانا كحمام , إلى الجنوب تتهاوى حواكير الزيتون لتصل إلى الوادي البعيد ,الليل يخيم على الجميع بسواده و ظلامه .

(دخيلك شو عملت تحتك يا هالرب

حتى الولف عن دربي يهرَّب

يا هالسهلي يا هالوادي يا هالرَّاب

أماني سلمولي عالحباب)

صوت فؤاد فقرو يضج خارجا من مسجلة توشيبا حديثة , تنقله نسائم ليلية عابقة برائحة الشواء , إنها ليلة من ليالي أبي الفوز اليومية , ليس فيها أي شيء جديد أو غريب .

أم الفوز تتجمع هي و بناتها الثلاث , و ابناها الاثنان , مع بطنها المنتفخ الذي ينبئ بمولود جديد , في غرفة المطبخ تعد لوازم السهرة من تبولة و مقالي و فواكه و سواها , إضافة للمشاوي و الموالح و المشروب الذي يتعهد بتجهيزه أبو الفوز , تضع كل شيء على الطاولة و تخرج دون أي كلمة , رغم أنها تغلي من الداخل , لان أبا الفوز رجل تعِّيب لا يحب أن يسمع أي كلمة عن البيت و الأولاد و مشاكلهم , يكفيه مناكفة الزبائن في النهار , و لا يريد أن يشاركه السهرة مع أصحابه أحد أبداً , حتى الأولاد لا يقتربون من غرفة الأب و ضيوفه , و لا يمدون يدا إلى الطعام رغم جوعهم إلا بعد انتهاء السهرة , و ذهاب الضيوف , عندها ينكبون على بقايا الوليمة هبشا و نبشا , و أكلاً و زلطاً لا يردهم أحد لان أبا الفوز يكون قد انطفأ و دخل في ملكوت النوم .

*****

(فيني بالوعد يا بنت فيني

عا هجرانك صبر ما عاد فيني)

حسون : كاسك أبو الفوز

ابو الفوز : بصحتك , آهلين و سهلين حسون .

حسون : أي و الله ما ضل عمر فينا , يا حسرتي ما ضل أكتر من اللي راح ...

هنا ينبري أبو الفوز لتعديل جلسته و تغيير مسار الحديث حتى لا يذهب إلى الهم و الغم و التشكي :

- شو يا بوشت ؟ بدك تنكدها علينا ؟ خلينا رايقين ومبسوطين , أي هالقعدة بتسوى كلشي راح و كلشي جايي , كاس الشباب .
- يتدخل أبو الزوز :
- أخي أبو الفوز حسون ما عم يتحسر عالعمر , لاء .

أبو الفوز : لكن على شو عم يتحسر و يندب ؟

أبو الزوز : على البنات .. على الصبايا الحلوين ... الغنوجات .

حسون : أي و الله أنت فهمت عليي يا أبو الزوز , لكن على شو الواحد بيتحسر آه ؟

(افترقنا يا زمن ما ضل فيني

سوى الرمق الأخير بلا حباب)

عند نهاية الموال من ملك العتابا و الطرب فؤاد فقرو الذي يهيم به أبو الفوز , لم يعد للصبر مكان , ضربت النشوة في رأس أبي الفوز , فرفع كأس الوسكي و هو يحاول الوقوف , لكنه ترنح بسبب تأثير الخمر عليه , فعاود الجلوس و هو يتعتع :

_ بصحتكن يا شباب , و لك الله يلعن ..... ياللي ما بيحبكون .

عندما يصل الحال بابي الفوز إلى هذا الوضع يعني أن السهرة شارفت على نهايتها , ربع ساعة و سيغلبه النوم , وينسحب صديقاه أبو الزوز و حسون .

أم الفوز في المطبخ استنفدت كل ما لديها من دعاء , و ابتهال لرب العالمين , حتى يقصف عمرها , ويريحها من هذه العيشة , الأولاد يتكورون و قد أنهكهم النعاس , يريدون النوم و لكن الجوع ينهش أمعاءهم و يمنعهم , ينتظرون بفارغ الصبر نهاية سهرة الوالد اليومية حتى يأكلوا و يستطيعوا النوم , غدا يجب أن يذهبوا إلى المدارس , وعليهم الاستيقاظ باكرا , الآن قاربت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ,سمعت أم

الفوز وقع خطوات تبتعد , هذا يعني أن صديقي زوجها قد ذهبا , استفاق الأولاد وعاد إليهم النشاط والحيوية أملا بالطعام المتبقي .

دخلت الغرفة ,أبو الفوز مسطوح منطفئ على فرشة الاسفنج قرب السرير و قد صار في سابع نومة , تمنت في سرها ألا يستيقظ أبدا حتى ترتاح منه , المسجلة التوشيبا تصدح بموال :

(إذا كان المحبة علاج روحي

انتي يوم موتي علاج روحي

إذا وضعت رضابا على جروحي

.....)

هنا ضغطت أم الفوز على زر الإطفاء لإسكاته قائلة :

ـ تروح روحك من بلعك , أنت و ياللي عم يسمعك .عندها عم السكون و الهدوء , لتكتشف أن لا صوت يخرج من المنازل المجاورة إلا صوتهم , الجميع يغط في نوم عميق , ندهت الأولاد ليتناولوا بقايا الطعام , و يندسوا في فراش النوم, و ألقت لحافا على أبي الفوز الذي بدأ بالشخير .

*****

غدا صباحا عند الساعة الخامسة , يستيقظ أبو الفوز و يركب سيارته البيك ـ آب التي يعمل عليها لإيصال الركاب , و المواد الزراعية , ومواد البناء و كل شيء حسب طلب الزبون إلى القرى المجاورة ,يعمل طوال النهار بلا راحة بلا توقف , بصبر الحمار القبرصي , دون كلل أو ملل , سهرة الليل تنسيه كل أتعابه و يأسه من هذه الحياة (بنت الشر.....ة) كما يسميها , كان يحلم ذات يوم بعيد أن يرتاح , أن يكون لديه مكتب يجلس فيه , يرد على الهاتف و يسمع طلبات الزبائن , ثم يعطي تعليماته للسائقين الذي يعملون على سياراته التي يملكها لتنفيذ الطلبات , لكن ذلك لم يحدث , و يبدو انه لن يحدث , فقد تجاوز الخمسين من عمره , و من لم يصبح ثرياً قبل بلوغ الأربعين , فلن يكون ثرياً أبدا) هذه حكمته التي استخلصها من هذه الحياة .

رفيقاه أبو الزوز و حسون مثله كل واحد يملك بيك _ آب يعمل عليها , عندما يلتقيان يبادر أبو الفوز موجهاً حديثه إلى حسون قائلاً له كالعادة كل يوم :

_ صباح الخير يا أي.. , كيفك ؟ طمني انشالله ما أكلت قتلة من المرا ؟

يرد حسون الذي اعتاد على كلامه :

_ أهلين يا بخ..... شو مفكرني تشتوش متلك ؟ما فشرت .

يتدخل أبو الزوز كالعادة أيضاً :

ـ لفوها انتو التنين بقى .... كل واحد يروح على شغلو , والمسا عالسهرة منحكي .

بهذه المفردات من قاموسهم اليوم يبدؤون نهارهم , ثم يفترقون لالتقاط رزقهم على أمل اللقاء مساء , ها قد بدأت الضجة في ساحة البلدة التي بدأ يتوافد إليها الفلاحون والعمال و الطلاب والموظفون من القرى المجاورة .

كان أبو الفوز شارداً في بقايا نشوة الأمس , ينتظر الزبون الأول في هذا الصباح , و صوت فيروز ينساب من المذياع عذباً رقراقاً يبعث السكينة و الأمل بيومٍ كريمٍ , أعاده صوتٌ خشنٌ إلى ضجيج الساحة , رجلٌ في الأربعين من عمره يبدو أنه غريب عن المنطقة بادره قائلاً :

ـ ممكن توصلني إلى قرية بيت ودعة ؟

نظر أبو الفوز إليه بتمعن محاولاً معرفة الرجل , و أجاب :

ـ تكرم عينك .. تفضل .

لم يستطع رغم تحديقه بالرجل ملياً الوصول إلى شيء , فتح الرجل باب السيارة , جلس بجانبه واضعاً حقيبة صغيرة بقربه , و قال بارتياح :

ـ صباح الخير .

رد أبو الفوز محاولاً فتح حديث معه , و هو يضرب مرشاً و يقلع بالسيارة :

ـ أهلا صباح النور , راجع بكير عالضيعة مو هيك ؟

أجاب الرجل باقتضاب يوحي بعدم الرغبة بالحديث :

ـ أنا جايي من الشام , لازم أوصل عالضيعة بسرعة حتى أقدر أرجع .

و أضاف : يمكن خليك تنتظرني ... شغلتي ساعة ساعتين بالكتير .

انفرجت أسارير أبي الفوز , و دعس على البنزين لتنطلق السيارة مسرعة على الطريق الملتوية بين التلال و الوديان , و قال بحماسة من وجَدَ زبونا لا يناقش بالأجر :

ـ أي مو تكرم عينك يا أستاذ , لعيونك ... و حياتك ما رح خليك تشعر بالطريق , و رح خليك تسمع أحلى عتابا .

وضع شريط فؤاد فقرو الذي بدأ يصدح من المسجلة , و انطلقت السيارة مسرعة على الطريق , بينما أبو الفوز تغمره السعادة بهذا الصباح المبارك

*****

مساء أم الفوز ترتدي السواد و حولها جاراتها , تبكي و تنتحب معتقدة أن الله استجاب لدعائها أمس , رغم أنها تكرر هذه الأدعية منذ سنوات لا تذكر عددها , الأولاد واجمون من هول المفاجأة , مسجلة التوشيبا تخشع بصوت عبد الباسط عبد الصمد بدلاً من صوت فؤاد فقرو الذي اعتادت عله , أبو الفوز يتمدد ميتاً تحت شجرة السنديان في مقبرة البلدة , أبو الزوز و حسون حزينان جداً و مذهولان , مشغولان بالتفكير في عبث الحياة و لا معناها , وسهولة وقرب الموت , والأهم في منزل مَنْ سيسهران بعد الآن .

الهروب إلى الثلج

إنها السابعة مساء , صحيح أن الوقت غير مناسب إطلاقا للخروج من المنزل , و لكن لا مفرَّ . تناولت مظلتي و أغلقت الباب خلفي , ألقيت نظرة حولي إلى البيوت المجاورة , كلها تقبع في ظلمة و سكون مرعب , و من بعض النوافذ يتسرب ضوءُ سراج خجولاً خافتاً لا يكاد يضيء , و فوق السطوح ترتفع قساطل المدافىء لتنفث دخانها الأسود مما يزيد الجو قتامةً و كآبةً , كانت معظم البيوت تنفث مع الدخان أقذارها و همومها و أحزانها , و تدفع البرد و الخوف عنها .

ها قد بدأت رحلة الألف ميل , قلت لنفسي مشجعاً إياها على المضيّ كي لا تتقاعس , لقد حاولت البقاء في غرفتي , صارعت البرد لعدة ساعات , و ماذا بعد؟ لا شيء سوى أنني سأموت متجمداً بصمت و هدوء , كنت أتململ في فراشي البارد علِّي ألتمس قليلاً من الدفء فالبرد ينخر في عظامي , الظلمة تلف الغرفة الفارغة إلا من كتب مبعثرة و بعض الأواني المطبخية , إبريق شاي و عدة أكواب تتوضع على صينية صغيرة وسط الغرفة , صحون متسخة هنا و هناك , مدفأة كهربائية منسية يعلوها الغبار لم يغنِّ الدفء فيها منذ خمسة أيام .

لا ضوء , لا دفء , البرد فقط يجثم بشبحه على الغرفة , أصابعي عيدان جافة أحركها بصعوبة بالغة , قدماي أصبحتا زرقاوين لا أشعر بوجودهما , أجرُّهما كجذعين قديمين , اتجهت غرباً و أخذت أتراقص ببطء على ألواح الجليد كهرٍّ يلهو و يتقافز , كل ما حولي يغري بالتزلج و السقوط , الشوارع خالية إلا من بعض المارة , السيارات تمر ببطء على ركام الجليد المبعثرة , ندف الثلج تتهاوى من السماء السوداء الكالحة , في البدء بطيئة ثم تزداد كثافة مع تزايد سرعة الريح التي كانت تهبُّ هادئة , شجعها تساقط الثلج فأخذت تتسارع و تعوي حتى خُيِّل إلي أنها تصرخ قائلةً :

ـ ها أنا قادمة أيها المشردون , أيها الخارجون من بيوتكم , سأقتلعكم سأنظف الأرض منكم بأمر رب العالمين .

و اشتد زئيرها , الغيوم السوداء تتراكض مسرعة , ندف الثلج تنقذف كالحصى على الوجوه و الجدران , أسرعت في سيري أتلفت يمنةً و يسرةً , أبحث عن جدارٍ يقيني من هجمة الريح , صوت ارتطام طرق مسمعي , التفت خلفي.. كانت سيارة تكسي قد انزلقت على الجليد فاصطدمت بالرصيف , خرج سائقها يشتم و يلعن و يتلفت باحثاً عمَّن يساعده , تجاهلته و غذذت السير , اشتدَّ عصف الريح , فالتجأت إلى أحد الجدران و تمتمت :

(ندف من الثلج الكئيب

مشردون بين الأرض و السماء

عبثاً تلقفتنا الريح من هنا و هناك

نعلو .. نهبط ... ننحني , و نتيه من جديد

نبقى مؤرقين بين رخاوة المياه أو جمودة الجليد) .

نعم ... جمودة الجليد , جمودة الدم في العروق , جمودة الحس بالأطراف , يدي التي تمسك بالمظلة أرفعها كخشبة جافة معلقة بذراعي , المظلة تتأرجح و تتخلَّع , التصقت بالجدار أداري الريح لأبتعد عن قبضتها التي تتشبث بأسمالي و كأنها تريد أن تعريني , أن تطرحني أرضاً و ترفسني .

أضاء الكون فجأة , الأرض , السماء , الشوارع , كلها بدت مشعشعة لامعة , من بعيد ظهر خط ناري متعرج و متكسر , في البدء انبثق من الغرب ثم امتد و امتد , و ظلَّ يقترب ... و يقترب , أصبح فوقي على بعد أمتار قليلة , مدَّ يده نحوي , رأيته يبتسم لي , يدعوني أليه , ابتسمت , مددت له يديَّ , صافحته و شعرت برعشة هزت كياني , بعثت الدفء في أوصالي , سبحت مع البرق , ارتفعت شعرت بنفسي كأنني طائر خرافي أنتقل في السماء , نظرت تحتي ... كانت الأرض مرتدية كفنها الأبيض البهي , البيوت , الأشجار , الشوارع , كلها تمدُّ يدها نحوي تتوسل اليَّ ترجوني أن أساعدها .

تلفعت بشال من الضوء , و هبطت فوق البيوت أنتقل من بيت لآخر , بدأت من غرفتي البائسة الفقيرة , ألقيت فيها حفنة من شعاع , فأصبحت دافئة منارة , تأملتها ... فلم أجد فيها صحوناً متسخة , و لا كتباً مبعثرة , كل شيء فيها نظيف , الفراش وثير , الكراسي مرتبة , الكتب مصفوفة في خزانة جليلة , عجبت لذلك فأنا لم يكن عندي سرير و لا كراسٍ , بل أنطرح على فرشة قديمة , و من يأتي اليَّ يخلع نعليه و يفترش الأرض , لا بدَّ أنني أخطأت , بالتأكيد هذه ليست غرفتي , و لكن تلك الصورة المعلقة على الجدار صورتي , و هذه الكتب كتبي , إنها غرفتي , أجل إنها هي ..... آه كم أنا سعيد , أمضيت فيها دقائق أتمتع بنظافتها و ترتيبها و أثاثها الجديد , ثم تنقلت إلى بيوت الآخرين , ألقيت فيها كل ما عندي من ضوء و دفء , و ابتعدت , ارتفعت في السماء ... ارتفعت حتى غاب عني كل شيء , لم أعد أرى , لم أعد أشعر بشيء , صرت هلامياً مبعثراً أنساب مع الريح كيفما اتجهت , لم يبقَ مني سوى صوتي , كنت أترنم , أتمتم , أخاطب كائناً ما لا أراه .

أقول له إنني بائس و فقير , إن البرد و الصقيع أجبراني على الخروج من البيت , و لولا ذلك لما عرضت نفسي للرياح و الثلوج , لما تشردت في الشوارع باحثاً عن مكان دافئٍ , و صرت أبكي , دموعي انسابت , و هطلت أمطاراً غزيرة تدفقت على الأرض جداول و سواقٍ , تغلغلت في أحشاء الأرض الرطبة الندية , سررت لذلك و غمرتني سعادة هائلة , فصرت أضحك و أضحك , كانت الأرض ترتج لضحكي و الشرر يتطاير في الأرجاء .

بقي الثلج يتساقط طوال الليل , غطى الشوارع و الدروب و سطوح المنازل , و في أحد الشوارع كانت مظلة محترق لم يبقَ منها إلا قضبان سوداء رفيعة محطمة , تدفعها الريح أمامها على الثلج , مخلفة وراءها أثلاماً صغيرة متعرجة .

المعاملة

ما حدث اليوم , أعادني أربعين عاماً للوراء , أربعين عاماً بالتمام و الكمال , كان عمري آنذاك عشر سنوات , عندما استيقظ على صوت أمي و أبي و هما يوقظاننا – أنا و أخوتي – حتى نتجهز لسفر مباغت , وقتها شعرت بسعادة غامرة , سعادة طفل يحثه أهله على أن يرتدي ملابسه و يتناول طعامه , ليتمكنوا من السفر بأسرع وقت ممكن , بعكس العادة , حيث كنا نرجو أهلنا كثيراً أن يأخذونا في سفرة إلى القرية أو إلى أي مكان , لكنهم دائماً يعدوننا ثم يتناسون .

المهم أنني كنت سعيداً جداً , رغم أنني لاحظت الإرباك و القليل من الحزن على وجه والديَّ , لكنني لم أشغل فكري بذلك حتى لا أعكر صفو سعادتي الطفولية , على عجلٍ تم كل شيء , و أصبحنا جاهزين للسفر , و مقصدنا قرية قريبة من بلدتنا يوجد فيها أقارب أبي , كنا نزورها في فصل الصيف , نمضي فيها عدة أيام نرتع و نلهو في الحقول و البساتين , و نسبح في مياه نبع القرية الذي يعبر عدة قرى , راوياً سهولها و حقولها و مزروعاتها , لكن الآن لسنا في الصيف , أنه شهر كانون الأول , فلماذا فكر أهلي بالسفر و تركوا كل مشاغلهم ؟ لا يهم ... لا أريد التفكير كثيراً بهذا , المهم سنسافر و سنركب السيارة , و نستمتع بمشاهدة الحقول و البساتين و القرى .

*****

ما حدث اليوم كان مفاجئاً لي , لم أتوقع ذلك أبداً , أربعون عاماً مرت و نسيت خلالها أشياء كثيرة , و أحداثاً كثيرة عشتها و انمحت من ذاكرتي , فأنا لم أعد طفلاً , عمري الآن خمسون عاماً , أصبحت صاحب أسرة مؤلفة من ثلاثة أولاد و زوجة , كما أنني غيَّرت مكان إقامتي , فلم أعد مقيماً في البلدة التي عشت فيها طفولتي و شبابي و مراهقتي , لكن هول المفاجأة أعاد إلى ذاكرتي كل التفاصيل لتلك السفرة المفاجئة .

*****

نزلنا من السيارة التي توقفت في ساحة القرية , بيادر القرية تنبسط من جهة الشرق , و تتمدد مقبرة القرية بقبورها الترابية الفقيرة في الجهة الغربية , هناك رأينا جمعاً كبيراً من أهل القرية , النساء يلبسن السواد و ينتحبن , و الرجال يستغفرون الله و يتعوذون به من الشيطان الرجيم , و يسبحون الحي القيوم الذي لا يدوم إلا وجهه .

أدركت بحسي الطفولي أن شيئاً مهماً قد حدث , و أن الناس حزينون , خاصة النساء , عيونهن حمراء من كثرة البكاء , لباسهن أسود , نحيب مكتوم من بعضهن يصل إلى سمعي , لم أهتم كثيراً كل ما يهمني هو أن أجد أقراني من أطفال القرية لألعب و ألهو معهم , فور نزولنا من السيارة , أمي التي كانت تلتزم الصمت طوال الطريق بدأت بالبكاء و التحقت ببقية النسوة , أبي قبل أن يلتحق بالرجال طلب من أحد الشبان أن يأخذنا – نحن الأطفال – إلى منزل أحد أقاربنا لنكون مع بقية أطفال القرية و سمعته يقول له :

- لا داعي لأن نجعلهم من الآن يحزنون و يشعرون بفاجعة الموت , بكير عليهم , سيكبرون و سيشعرون بذلك , لا حقين عالهم و الغم .

سمعت كلمة الموت لأول مرة , لكن لم أعرف معناها , شعرت أنها كلمة كبيرة و خطيرة و مؤثرة , تجعل الناس يبكون و يحزنون , سأل أخي الأكبر الشاب الذي كلف بإيصالنا إلى البيت الذي يوجد فيه أقراننا من الأطفال عما جرى , و لماذا يتجمع الناس في المقبرة , فسمعته يقول له :

- إن كمال ابن أبي كمال الذي ذهب منذ عامين للعمل في لبنان , وصل جثمانه اليوم إلى القرية , فقد مات و لم يعرف أحد كيف مات ؟ أو سبب الوفاة ؟ جاءت سيارة إسعاف تحمل الجثمان ملفوفاً بكفن , طلب المرافقون من أهله دفنه فوراً , حتى إنهم لم يسمحوا لهم بأن يلقوا عليه نظرة الوداع , و أضاف بحسرة :

ـ يا حسرتي عليه مازال شاباً , انه بعمري و لكن الموت لا يعرف كبيراً أو صغيراً .

أنا لم أعرف كمال و لا أباه , لم أره في أي مرة زرت القرية , سألت أخي :

- أين لبنان ؟ كنت أظن أنه يعرف , لكنه أجابني :

- لا أدري .

سألته : ماذا يعني مات ؟ ما هو الموت ؟

قال : الموت هو أن يذهب و لا يعود أبداً .

سألت : إلى أين يذهب ؟ و لماذا لا يعود ؟ ألا يشتاق لأهله و أخوته ؟

فأجابني بكفٍّ على نقرتي جعلني أتعثر و أكاد أقع على الأرض و قال صارخاً :

ـ و ما أدراني أنا إذا كان يشتاق أو لا يشتاق آه ؟ هل تراني ذهبت معه ؟ كُفَّ عن هذه الأسئلة اللعينة , حل عني بقى .

فالتزمت الصمت .

*****

الآن بعد أربعين عاماً بكل ما فيها من تغيرات و أحداث و تنقلات , الزمن غير الزمن , و الناس غير الناس , و أنا الآن غير ذلك الطفل الساذج , عرفت الموت عن قرب بعد موت أبي و أمي , و فقدت بعض الأصدقاء الأعزاء على قلبي , و عاينت هوة الموت السوداء , اللانهائية , المحيرة , الآن بعد هذه السنوات , و أنا في عملي يقف أمامي هذا الرجل الذي تجاوز الستين من عمره بلكنته اللبنانية , بجسده الذي ينبض حياة ليقول لي :

ـ هل أنت الأستاذ فلان ابن فلان من بلدة كذا ؟

عارفاً اسمي و اسم أبي و بلدتي .

قلت له : نعم أنا هو بذاته . فقد اعتدت على لقاء أناس من بلدتي يراجعون المؤسسة التي أعمل بها لانجاز معاملاتهم , تابعت قائلاً :

ـ تفضل ماذا تريد حتى أخدمك ؟

قال : أنا اسمي أبو أحمد كمال ابن حمدان من قرية ... أكيد لا تعرفني , و لكن أقاربي ذكروا اسمك لي , و أنك تعمل هنا و تستطيع مساعدتي في إتمام هذه المعاملة لابني , فأنا مقيم في لبنان و لا أعرف شيئاً في هذه المدينة .

في البداية لم أهتم كثيراً بالاسم لأن الموضوع برمته غاب عن ذاكرتي , و لكن عندما أعطاني الأوراق لأطلع عليها .... رويداً ... رويداً بدأت تستيقظ ذاكرتي , و أخذت الأحداث و التفاصيل تنجلي في ذهني , انتفضت فجأة في جلستي , تأملته ملياً و أنا غير مصدق , كدت أقول له :

- ألست أنت كمال ابن أبي كمال الذي توفي و دفن في مقبرة القرية منذ أربعين عاماً ؟ !
- لكنني تمالكت نفسي و لم أنطق بحرف , أما هو فقد شعر بارتباكي و نظراتي فقال :
- خير أستاذ ؟ هل يوجد أي خطأ في أوراق المعاملة ؟

قلت له :

- لا أبداً إنها صحيحة تماماً , تفضل اجلس لا بد أنك متعب من السفر فالمجيء من لبنان إلى هنا ليس أمرا سهلاً .

- أي و الله يا أستاذ ليس أمراً سهلاً , خاصة على رجل كبير في السن مثلي , و لكن ماذا أفعل الولد لا يستطيع المجيء , لديه أعماله و مشاغله فقلت أقوم أنا بمتابعة هذه المعاملة عوضاً عنه باعتباري متقاعد لا عمل لي .

(و متقاعد أيضاً ؟ ! يا سلام ...) قلت في نفسي , أنجزت له المعاملة قبل نهاية الدوام بقليل , متقصداً الإبطاء بإنهائها و أنا أنوي دعوته ليبيت الليلة في منزلي , عندما صارحته بنواياىَ و أنا أسلمه المعاملة جاهزة , حاول جاهداً شكري على مساعدته و الاعتذار عن المبيت , لكنني كنت قد اتخذت قراراً حاسماً بعدم قبول أي اعتذار , لأن هذا البركان الذي يغلي في صدري من الوساوس و التساؤلات و الألغاز و الحيرة و التخمينات لا أحد يطفئه سواه , أمسكت بيده و كأنني قابض عليه , و توجهنا معا إلى المنزل .

الصباح هادئ جداً

لم يتصور ديب في يوم من أيامه الماضية انه سيركع على قدميه , انه سيطعن في صميمه طعنة لا مفر منها .

هكذا انهار أخيراً .. وقفت قبالته كل أيامه الماضية شامتة به , لقد خانته قوته و جعلته الآن قزماً ذليلاً ضعيفاً أمام حياته التي تهزأ منه , و لا بد أنها ستنكره , و تتبرأ منه , لأنها لم تتوقع له هذا السقوط , لقد اعتزت به و هو يقاوم و يصارع , و يكابر على نفسه , أما الآن , لا بد أنها ستطلقه .

شعر ديب في هذه الليلة العاصفة من ليالي الشتاء بضعفه و عجزه , و أحس أنه غير قادر على بعد على الصبر , ها قد أصبح في ستينيات عمره , و رأى أن بينه و بين الموت مسافة قصيرة جداً , أو لنقل انه كان الليلة على حافة الموت .

كثيراً ما نصحه أهل القرية أن يذهب إلى الطبيب كي يعالجه , لكن ديب الرجل الجلف الذي يشق (القليعة) بمحراثه تلك الأرض التي لم تضرب بها سكة محراث , ديب الخمار الذي يكرع ألفية و لا ترف له عين , استصعب رضوخه للمرض , و أصر على بقائه في بيته إلى أن يوافيه الموت و هو غير آسف على شيء في هذه الدنيا كما كان يقول .

لقد أمضى ديب حياته وحيداً , منذ أن مات والداه العجوزان , أي منذ ما يقارب الثلاثين عاماً , و تركا له حقلاً صغيراً قرب النهر , كان يعمل فيه و يقتات مما يزرعه .

عند المساء يجلس أمام باب داره الطيني يتأمل الحقول و البساتين , لم يرتفع بنظره إلى قمم الجبال العالية التي تحيط بالقرية , يرسل تنهيدة طويلة تحملها نسمات المساء لتدفنها بين الأشجار و الكروم .

الآن ... و بعد أن تمكن منه المرض , كان يجلس مرهقاً يتذكر أيام الصحة و العافية , عندما كان يضع فأسه فوق كتفه قاصداً بستانه في قعر الوادي , كان يمشي بصلابة و قوة على طريق القرية المليء بالحصى , و لم يكن يأبه لحبات العرق تنز من جسمه الصلب المتين , و هو يصارع الأرض ليعتصر منها الغلة و الخضار .

العمل في الحقل , غرس الأشجار , ري المزروعات , كل هذه الأعمال أفنى ديب عمره فيها , و منحته لذة لا تمنحه إياها أي امرأة , هذا ما كان يرد به على أصحابه عندما يسألونه عن سبب رفضه للزواج .

أحياناً عندما يتعتعه السكر , كان يقول :

_ أنا لا أحب الزواج بأكثر من اثنتين , و الحقيقة أنني عاجز عن إرضاء ثلاث , فأنا أقضي النهار مع الأولى , و الشطر الأول من الليل مع الثانية , أي ليس لدي وقت لثالثة . و كان يعني بذلك الحقل الذي يعمل به نهاراً , و الخمارة التي يرتادها ليلاً , و هكذا أمضى حياته وحيداً .

اليوم ذاق ديب العجوز الوحيد , مرارة الوحدة و آلام المرض , أدرك حاجته إلى الزوجة التي تعتني به و تسهر على راحته في ليالي المرض , أدرك أنه ارتكب خطأً كبيراً عندما عمل بنصف نصيحة صديقه (حميدان الجعلوك) الذي كان يقول له :

_ يا ديبو لا تشتت شمل العيلة , الخمر و النسوان متل الموال مع الكاس .

لكن ديب ركب رأسه و غنى مواله وحيداً .

تأكد له اليوم أن الإنسان غير قادر على العيش وحيداً مهما حاول أن يوهم نفسه أنه قادر على خوض الحياة دون شريك , هناك ظروف يحتاج فيها المرء ليد تربت على كتفه , لنظرة حنونة تحفزه و تعينه في مصيبته , الآن أدرك ديب كل ذلك , و لكن أدركه متأخراً فقد فات الأوان و عليه أن يتحمل عذاباته وحيداً .

العاصفة في الخارج ما زالت تشتد , و الأمطار تهطل بغزارة , و ديب يئن تحت وطأة المرض في فراشه , الموقد القريب منه بدأت حرارته تنخفض , تقلب ديب يمنة و يسرةً تناهى إليه صوت هرة تموء في الخارج مواءً حزيناً , و بين اللحظة و الأخرى كان البرق يضيء الجبال و الأشجار , ثم تهتز أرجاء الغرفة بقصف الرعد المدوي .

حملق ديب بسقف الغرفة , شعر أن نهايته قريبة جداً , انه يستطيع رؤيتها ترف فوق أهدابه , و بدأ يعيد حساباته , و يقلب الأفكار في رأسه , ثم لمع في عينيه الذابلتين بريق خافت , الآن قرر ديب أن يرضخ , لقد سدت أمامه السبل , و بعد طول عناء انحنى هذا العجوز المسكين .

غداً صباحاً , إذا ما تحسن الطقس سيذهب , سيرتدي معطفه البالي القديم الذي اشتراه منذ عشر سنوات , صحيح أنه متهرئ و بالٍ , و لكنه سيرتديه , أما الشروال فانه مازال بحالة جيدة , لقد فصله منذ عامين , و كلفه وقتها مئة ليرة , انه يذكر كيف ألح عليه صديقه

حميدان أن يذهب معه إلى طرابلس لأن الشراويل الطرابلسية معروفة بجودتها , و هكذا أطاعه و ذهبا معاً .

داهم النوم ديب و هو يتذكر نفسه يسير في شوارع طرابلس و أحيائها , و يتذكر نفس الأركيلة الذي مزمز عليه في (المينا) .

في الصباح كانت المياه تغمر الحقول المنتشرة حول ضفتي النهر , و كأنها تقول إن مزروعات هذه الحقول لن تحسب من موسم هذا العام , السماء زرقاء صافية بعد ليلة عاصفة , الشمس تسطع من وراء السحب البيض و كأنها تسخر من ذاك العجوز الملقى فوق الجسر الخشبي الذي انهار جزء منه أثناء الفيضان , و في تلك الغرفة النائية الوحيدة الباردة كانت هرة ضائعة تضع صغارها فوق الفراش البارد , بينما دعامة خشبية في سقف الغرفة تنخفض ببطء شديد نحو الأرض تتلوها حفنات من الطين تتساقط حفنةً ... حفنة .

كاتب تعداد

كان صاحب المكتبة يتنقل بنظره بين عنوان الكتاب الذي وضعته بين يديه و بين وجهي , متسائلاً و حائراً ثم قال :

- كيف وصل إلى يديك هذا الكتاب ؟ انه كتاب نادر و قيّم , و اختصاصي أيضاً لا يقتنيه عامة القراء ؟

قلت : انه أحد مراجعي في دراستي الجامعية .

بعد صمت قصير , و بينما هو يقلب صفحات الكتاب ذي المجلدين الفاخرين و الطبعة الأنيقة , تابعت :

- أنت ترى انه يستحق أكثر من المبلغ الذي طلبته .

سألني : لماذا تريد بيعه ؟

- أنا بحاجة إلى نقود , ظروفي صعبة جداً , و أكملت : كم ستدفع فيه ؟

قلَّبه ملياً و قد ظهر على وجهه أن هذا الكتاب يستحق الاقتناء في مكتبته الخاصة أكثر من عرضه على رفوف المكتبة بقصد البيع , ثم قال :

- خمسمائة ليرة .

- حسناً مبروك عليك ناولني النقود .

- تفضل اجلس قليلاً , الشاي ساخن ما رأيك بشرب كأس من الشاي ؟

قلت حاسماً : لا أستطيع .

تناولت الخمسمائة ليرة و خرجت بسرعة كمن تأبط شراً و حقداً على هذه الحياة الحقيرة .

*****

لقد راودتني فكرة بيع هذا الكتاب منذ أشهر , ولكنني كنت متردداً و خجلاً , أنا في وضع مادي مزرٍ , تخرجت من الجامعة من ثلاث سنوات , وأنهيت خدمتي الإلزامية منذ أربعة أشهر , وليس هناك أي شيء وهمي أخادع نفسي بأنني أنتظره , رحلة البحث عن العمل

بدأت , و ليس سهلاً أن تجد عملاً في بلدٍ يُعتبر أكثر العاطلين عن العمل فيه من حملة الشهادات الجامعية .

*****

خلال الأشهر الماضية زرنا الأقارب والمعارف و أصدقاء الأهل , و كل من له صفة مسؤول لعلي أحصل على فرصة وظيفة في أي مؤسسة , قدمت طلبات توظيف في أكثر من جهة مصحوبة بكتب توصية , و لكن عبثاً , الفقراء لا مكان لهم إلا الشارع , عندما فقدنا الأمل بالناس زرنا الأضرحة والمقابر نطلب شفاعتها للمساعدة في تحقيق المراد و قدمنا النذور , قصدنا جارتنا التي قرأ في الفنجان لعلها ترى في ثناياه و خطوطه المشربة طريقاً ممهداً لتحقيق أمنية نريدها , أيضاً عبثاً , أصبحت أترصد أي حلم أراه لأحكيه لأمي و لأي مفسرة أحلام من جاراتها ربما تستشرف أي بشرى قادمة في أطيافه , أيضا عبثاً .

من يقرأ هذا الكلام يقول ساخراً :

- ما هذا ؟ معقول ؟ أنت شاب مثقف خريج جامعة تلجأ إلى المزارات و قراء الفناجين و مفسري الأحلام ؟ما هذا التخلف ؟

حسناً سمِّه تخلف ,جنون , خرافة , سمه ما شئت لكن هذا ما حصل يا عزيزي ,أنت لا تعرف اليأس و مفاعيله ,وطبعاً حتى ترتاح و تكتمل شماتتك كل ذلك لم يجدني نفعاً , و لكن بكل صدق وبلا خجل أقول الآن بعد مضي ما يزيد على ربع قرن من الزمن , نعم لقد فعلت ذلك . و أنت بكل تأكيد لم تمر بظرف كظرفي لم تجد في جيبك قرشاً واحداً , شاب مفلس بلا عمل ,ماذا تتوقع أن يفعل ... آه ؟

*****

المهم تناولت النقود و خرجت أتسكع في شوارع هذه المدينة الساحلية, دخلت إلى مقهى الطاحونة لأشرب كأساً من الشاي و أتأمل البحر صفحة الحالمين بعوالم السفر والبائسين , أحاول أن أقرأ خطوط أمواجه و زبده , لم أدرِ كم مرَّ من الوقت , كان كأس الشاي بارداً فجأة خلق أمامي صديقي , صديق الدراسة و الخدمة الإلزامية تصافحنا بعد أن زالت عن وجوهنا معالم الدهشة قلت له :

- أهلا بك ؟ ما هذه المفاجأة ؟ ماذا تفعل هنا ؟

- أنت ماذا تفعل هنا , أنا كل يوم في هذه المدينة .

- هل تركت القرية ؟

- لا . مازلت هناك و لكنني أعمل هنا .

سألته : لماذا لست في العمل الآن ؟

أجاب : اليوم لا عمل لدي و أضاف : و أنت ماذا تفعل هنا ؟

قلت له بعد أن دعوته للجلوس و طلبت من الكرسون إحضار كأسين من الشاي : - أنا هنا أتأمل البحر فقط .

- ألم تجد عملاً ؟
- - أبداً , لو وجدت عملاً لما رأيتني هنا
- - حسناً ... هل تريد أن تعمل ؟
- نظرت إليه نظرة شك و توجس , وانتابني شعور بأنه يسخر مني لأننا درسنا سوية , و أدينا الخدمة الإلزامية معاً و لكن هو موجد عملاً و أنا مازلت أفتش عن عمل بلا جدوى . فبادرني :
- - ما بك ؟ لماذا لا ترد ؟ هل تريد أن تعمل ؟
- قلت : طبعاً أريد .
- حسناً بعد أن نشرب الشاي نذهب معاً إلى شركة (....) القريبة من هنا نقدم طلباً لك و غداً نبدأ العمل معاً

فكرت معقول بهذه السهولة ! أم أنه يسخر ؟ على كل حال لن أخسر شيئاً , و لكن طعم الشاي مع صديقي كان مختلفاً , منذ زمن لم أشعر له هذا الطعم اللذيذ و الرائع .

*****

جرت الأمور وكأنها في الخيال , في اليوم التالي صباحاً انطلقت من المنزل عند الساعة السادسة صباحاً , الدوام يبدأ من الساعة السابعة صباحاً و حتى التاسعة مساء , العمل (كاتب تعداد) .

الساعة السابعة والربع صباحاً كنا حوالي عشرين شاباً بعد قليل جاء رجل في الثلاثينيات من العمر يمتطي دراجة هوائية توقف , طلب منا بصوت مزمجر غاضب أن نصطف بشكل مستقيم , سجل أسماءنا على ورقة صغيرة , ثم بدأ ينادي : فلان و فلان يعملان على الباخرة كذا (يذكر اسم الباخرة) , و هكذا حتى وزعنا جميعاً كل

اثنين على باخرة و مضى مزهواً بسلطته علينا . افرنقع الشباب باتجاه السفن الراسية في الميناء , أنا و صديقي كنا معاً حتى أتعلم منه , قال لي :

- هل تعلم أن هؤلاء الشباب كلهم مجازون جامعيون مثلنا

لم أستغرب ذلك و صمت , فتابع سائلاً :

- هل تعلم أي شهادة يحملها هذا الرجل المسؤول عنا ؟

أجبت بلامبالاة

- لا أعلم .

- انه يحمل شهادة ابتدائية لكنه عامل مثبت في الشركة .

قلت :

- لا يهم المهم عندي أنني وجدت عملاً , و لكن الأجر قليل جداً , في اليوم مائة و عشر ليرات ! و الدوام من الساعة السابعة صباحاً و حتى التاسعة مساء !

- فأجابني :

- لا تهتم , هذا الأجر لا شيء , الآن ستعرف , لن يمر النهار على واحدنا إلا و سيكسب ثلاثمائة أو أربعمائة ليرة .

قلت مدهوشاً :

- معقول ؟ كيف ؟
- لا تهتم , و أضاف ضاحكاً , إنا عملنا هذا ليس قليلاً , و شدد من لهجته – كاتب تعداد ... كاتب يا صديقي الشاعر , و أخيراً تم الاعتراف بنا ككتاب . و أخذ في الضحك و أخذت أجاريه .

*****

عملنا طوال النهار هو أن نحصي عدد الأكياس في كل (شكَّة) تحملها الرافعة من بطن السفينة لتضعها في بطن الشاحنة التي ستنقلها إلى مناطق مختلفة في مدن الداخل , و حتى نكون دقيقين في العدِّ يكرمنا أصحاب الشاحنات بخمسين ليرة على (التك) أي

الشاحنة المفردة , و مائة ليرة على القاطرة و المقطورة , و فعلاً لم يمضِ النهار حتى كانت تتراقص في جيبي نقود تصل إلى ثلاثمائة ليرة .

(كاتب تعداد) إنها مهنة جيدة , صحيح أن الوقت طويل , و لكن المهم هو تحصيل النقود , و تذكرت قصة قرأتها للكاتب حنا مينة عنوانها (على الأكياس) يذكر فيها انه عمل كاتباً على الأكياس في ميناء اللاذقية , فهل انا أفضل منه ؟ كنت أواسي نفسي و أنا مبحلقاً بعيوني مدققاً النظر بكل (شكة) من مختلف الزوايا , بينما تحملها ذراع الرافعة من السفينة إلى الشاحنة حتى يكون الرقم الذي أسجله صحيحاً بلا زيادة و لا نقصان .

*****

أمضيت في هذا العمل حوالي شهرين , كانت أجمل أيام حياتي , التقيت أشخاصاً رائعين لم التقِ بأيٍّ منهم منذ ذلك الحين حتى كتابة هذه السطور .

فجأة تركت العمل , في يوم جمعة , يوم عطلتي جاءت جارتنا لزيارتنا , شربنا القهوة معاً , تناولت فنجاني و قالت :

- ما رأيك أن أقرأ لك فنجانك ؟

لم تنتظر إجابتي , كانت مغرمة بقراءة الطالع من خلال خطوط البن المتشابكة على جدران فنجان القهوة , تناول الفنجان و بدأت تثرثر , قالت أشياء كثيرة , لم أهتم كثيراً بما تقول , على العكس من حالي سابقاً قبل أن أجد عملاً , و لكن جملة واحدة قالتها استرعت انتباهي قالت :

- اسمع يا .... خلال أيام قليلة ستستلم ورقة بيضاء , ستمسك بها و ستطير فرحاً و سعادةً , و سترتاح كثيراً .

حينها لم أكترث بما قالت , و لكن ما جرى معي بعد ثلاثة أيام أدهشني , صدق أو لا تصدق , قل : جنون , خرافة , أساطير مهووس , خبل , قل ما تريد , اتصل بي أحد الأصدقاء ليقول لي :

- طلبك الذي قدمته للعمل في المؤسسة التي أعمل بها تمت الموافقة عليه , و عليك الالتحاق بالعمل بأسرع وقت ممكن و استكمال بقية الأوراق المطلوبة .

- في اليوم التالي كنت في العاصمة , ممسكاً بطلب العمل الموقع بالقلم الأخضر , تركت الميناء و البواخر و البحر و أصدقائي (كَتَبة التِّعداد) لألتحق بهذا المستنقع , و ها قد أمضيت فيه حتى الآن خمسة و عشرين عاماً , أنا كاتب التعداد السابق .

****

الصفعة

كانت صفعة قوية جعلت الشرر يتطاير من عيني , فجأة و دون أي إشارة تحولت تلك اليد النحيلة البيضاء ذات الأصابع الرفيعة الطويلة إلى مطرقة من حديد , و دوت تلك الصفعة على خدي , نظرت إليه , كان وجهه خاليا من أي تعبير , ملامحه ذاتها , تشير إلى رجل لطيف هادئ و رومانسي , و لا يمكن أن يتحول إلى رجل فظ قاسٍ و عنيف , لكن تلك الصفعة المفاجئة و المؤلمة قلبت كل شيء .

رغم ألمي و مفاجأتي بقيت ساكنا , احترت ماذا أفعل ؟ كيف أتصرف ؟ حديثنا كان حديث صديق لصديق , خاليا من أي كلمة نابية أو قاسية , تحدث إلي كأنني صديق قديم له , معاتبا و راجيا , و بالمقابل كنت في منتهى اللطف معه , و تقبلت عتبه بتفهم و اهتمام و بشيء من الأسف على ما حصل , و لكن لا يد لي فيما جرى , لقد جرى بمحض الصدفة .

وضعت يدي على خدي مكان الصفعة , و أعدت النظر إليه , فإذا به قد أدار ظهره و انصرف بهدوء , ثم تلاشى أمام ناظري , لم أحاول اللحاق به , لم أسأله لِمَ فعل ذلك ؟ و لم أغضب منه أيضا , لقد قلت سابقا أنني أتفهم عتابه و لومه و حتى صفعته .

لم أكن قد رأيت هذا الشخص في حياتي أبداً , رجل طويل القامة يميل إلى النحافة , ملامح وجهه تقول انه رجل فكر و أدب , عاش متنعماً في حياته , كل شيء فيه يدل على هدوئه و دماثته و جديته أيضا , و أظن أن هذه الصفعة التي تلقيتها منه هي أول صفعة يفعلها في حياته , لذلك وضع فيها كل قوته و جهده و إصراره و تصميمه , و كأنها التعبير الأخير لديه , أو أنها الجملة الأخيرة قبل أن ينصرف , أو بالأحرى يتلاشى بعد أن فقد ما يعادل حياته كلها .

*****

كنت ماراً بالشارع بلا مبالاة , أضيع الوقت الذي يقولون عنه أنه كالسيف ان لم تقطعه قطعك , أو انه من ذهب , غير مكترث بحده القاطع أو قيمته الذهبية , أقلب بعض الكتب المعروضة على الرصيف في شارع مكتظ بباعة الكتب القديمة التي أجبر الظروف أصحابها على بيعها بثمن بخس ليتدبروا شؤون حياتهم , أو إنها وقعت بين أيدي ورثة لا يقدرونها حق قيمتها و يعتبرونها عباً عليهم , أتأمل هذه الكتب متنقلا من كتاب لآخر , استوقفتني علبة كرتونية تحتوي على حوالي عشرة مجلدات سوداء اللون , مددت يدي لأتصفح أحدها لكن البائع , و على غير العادة وقف بجانبي فورا و بادرني بالقول :

ـ عفواً أستاذ لو سمحت ... رجاءً لا تخرج الكتاب من مكانه .

التفت إليه متفاجئاً لان هؤلاء الباعة عادة لا يقتربون من الزبون و يتركونه يقلب الكتب و يتصفحها ملياً دون مبالاة منهم , ربما من كثرة العابرين الذين يضيعون الوقت مثلي بتقليب الكتب و تصفحها ثم يمضون دون أن يشتروا أي كتاب , قلت للبائع :

ـ فقط أريد أن أتصفحه و أتعرف إلى عنوانه .

أجابني :

ـ انه مخطوط قديم و كتاب نادر .

سألته :

ـ ما اسم الكتاب ؟ من مؤلفه ؟

أجاب : الحقيقة لقد نسيت اسمه و اسم مؤلفه , و لكنه كتاب نادر و ذو قيمة .

قلت : هل يمكنني أن أتصفح المجلد الأول منه ؟

قال : اعذرني .. لا أستطيع فقد اشتريته هكذا بهذه العلبة من مكتبة أحد الأشخاص و لم يسمح لي بفتحه , و أنا سأبيعه كما اشتريته .

لقد زاد فضولي تجاه الكتاب , لكنني حاولت بداية أن أتجاهله و أظهر عدم اهتمامي به , و انصرفت لتصفح الكتب الكثيرة المعروضة على طول الرصيف , و بلا شعور وجدت نفسي مرة أخرى أمام العلبة بمجلداتها العشرة , تأملتها ملياً , يبدو أنها تعود لسنوات طويلة حاولت أن أقرأ بعض الكلمات المكتوبة على العلبة لكن توالي السنين و طول التخزين و الرطوبة جعلت الكلمات غير مقروءة , سألت البائع :

ـ كم ثمن هذه المجلدات ؟

ـ خمسة آلاف لير فقط .

قلت له : تقول خمسة آلاف ليرة و كأن هذا المبلغ بسيط .

قال : هذا كتاب نادر يا أستاذ و هذا المبلغ زهيد جداً مقابل قيمة الكتاب , لو ن هذا الكتاب معروض في مكتبة لكان سعره لا يقل عن خمسين ألف ليرة . لكن كما تعلم نحن نبيع بفرنكات .

ـ طبعاً ... طبعاً (قلت ذلك بشيء من السخرية) و تابعت :

ـ هل يمكن أن أتصفح أي مجلد منها إذا وعدتك بشرائها ؟

قال بحسم : لا .. أبداً قلت لك سأبيعها كما اشتريتها . و أضاف : خذها يا أستاذ و لن تندم . يبدو انك قارئ و مهتم بالكتب و أكيد لديك مكتبة كما أظن .

أجبته : نعم لدي مكتبة متواضعة .

قال : صدقني هذا الكتاب سيجعل مكتبتك تضم كتابا مهماً و نادراً فيها

كلامه زاد فضولي و اهتمامي , و لكن فقط لو استطيع معرفة عنوان الكتاب , فكرت قليلاً , ترددت كثيراً ثم ابتعدت عن البائع و ذهبت أتجول في الشوارع بلا هدف , تأملت البنايات و النوافذ , الشوارع و الجسور , السيارات العامة و الخاصة , عرجت إلى حديقة عامة أتأمل الناس و الأشجار و الحياة التي قلبت هذه المدينة رأساً على عقب , لم تعد الحدائق مكاناً للتسلية و الراحة بل أصبحت مكاناً صارخاً لمعاينة مأساة الناس عن قرب و قد أصبحت الحديقة منزلا لهم , وضعوا بعض الفرش البالية و أدوات قليلة للطبخ و صنع الشاي لنسيان البؤس و الشقاء الذي أطاح بحياتهم و بالمجتمع عموماً , شعرت بضيق كبير في صدري و عدت للسير في الشوارع مرة أخرى بلا هدف لأجد نفسي من جديد أمام العلبة الكرتونية بمجلداتها العشرة .

بادرني البائع : أراك قد عدت يا أستاذ ؟

لم أتفوه بكلمة , نظرت إلى وجهه محاولا إيجاد أي تعبير على ملامحه لتفسيره و التوصل إلى نتيجة ما , و لكن عبثاً , لا تعبير , فقط وجه بائع يريد أن يغري زبوناً بشراء كتاب يقول انه هام و نادر و ذو قيمة .

أضاف : لن تندم على شرائه يا أستاذ , صدقني .

سألته : بكم ستحسبه علي ؟

قال : خمسة آلاف ليرة فقط .

كم تغيظني هذه الـ (فقط) . ألقيت نظرة حولي على هذه المدينة , تأملت الشارع الطويل , و المآذن الأربعة لجامع التكية السليمانية السامقة في السماء معزولة في ماضيها البعيد عن كل ما يجري حولها , تأملت المارة و السيارات و هي تعبر الشارع دون أي اهتمام بكل

هذه الكتب المكشوفة على قارعة الطريق كعورة عامة , تظهر قبح الحالة التي وصلنا إليها , لا يهم ثمنها , موضوعها و ندرتها و قيمتها , الجميع يجري وراء رزقه و عيشه , تكاليف الحياة أصبحت صعبة جداً و الإنسان بالكاد يستطيع أن يؤمن قوت أسرته بما يحصِّل من نقود قليلة , فأي معتوهٍ أنا حتى أسفح مبلغ خمسة آلاف ليرة على كتابٍ مجهول الموضوع و العنوان و المؤلف ؟ فقط لآن البائع يصفه بأنه هام و نادر و ذو قيمة ! قبل قليل رأيت مأساة بعض الناس في الحديقة , هُجِّروا من بيوتهم , ثم ما الذي يضمن لي أنني سأبقى في بيتي و لن أضطر مثل كثيرين غيري على الهروب من بيتي ؟ فكرت طويلاً , و قررت أخيراً الانصراف و نسيان الموضوع برمته , و حين هممت بالخطوة الأولى للنفاد بنفسي و نقودي قبل أن يغلبني فضولي بادرني البائع قائلاً :

ـ اسمع أستاذ يبدو أنك محتار و متردد أنا سأساعدك , سأخرجك من حيرتك .

قلت له متعجباً : أنت ستساعدني ؟ كيف ؟ هل ستغريني من جديد بأهمية الكتاب و ندرته ؟!

أجاب : لا .. لن أغريك بذلك رغم انه فعلا كتاب هام و نادر و ذو قيمة لكن ما سأقوله ل كان هذه المجلدات العشرة التي تراها أمامك الآن تُعرَض للمرة الأولى هنا على الرصيف بين هذه الكتب , كنت متردداً جداً بعرضها للبيع , لا بل فكرت أحياناً بالاحتفاظ بها في منزلي , و لكنني قلت لنفسي أنا أشتري مكتبات لأناس من كل الأصناف كتاب أدباء شعراء أساتذة جامعة , باحثين , من ورثة أناس أغنياء كانوا يحتفظون بالكتب الثمينة و النفيسة كجزء من ديكور منزلهم الفخم , و وضعهم المادي لا يقارن بوضعي البائس فلماذا أحتفظ بها ؟ و أنا بالكاد أوفر حاجياتي بيتي ؟ ثم ماذا سأفعل بها ؟ و بعد طول تفكير و تردد قررت اليوم عرض هذه المجلدات للبيع لعل أحدا ما يشتريها و يعرف قيمتها .

قاطعته سائلاً بعد أن أفاض بالحديث و الشرح و التعليل و حتى لا يطيل أكثر , و آملاً بأن أستدرجه ليقول كلمة ما تفيدني في تكوين أي معلومة عن الكتاب :

ـ إذن لا بد أنك فتحت الكتاب و تصفحته و أنت تفكر بالاحتفاظ به ؟ لا تقل لي لم تتصفح الكتاب ؟

أجاب بكل ثقة و حسم : أبداً لم يخطر ببالي تصفح الكتاب , يا أستاذ أنا أشتري يومياً عدداً كبيراً من الكتب فهل تظن أنني أتصفحها واحداً .. واحداً و من أين لي الوقت و أنا أمضي نهاري كله واقفاً على بسطة الكتب هذه و حين أصل إلى بيتي لا أعرف كيف آكل لقمة و أنام من شدة التعب .

و أضاف بنبرة رجاء : يا أستاذ نحن أناس بسطاء نريد أن نعيش فقط و العيش كما ترى بات صعباً جداً , و أنت إذا اشتريت هذا الكتاب سيكون هذا المبلغ الذي ستعطيني إياه أكبر مبلغ أتقاضاه طوال سنوات عملي ببيع الكتب . و أكمل : واحدنا ينتظر طوال النهار هنا على الرصيف تحت حرارة الشمس اللاهبة و برودة الشتاء القارسة , بين ضجيج السيارات العابرة و زحمة الناس المارة , يغطينا الغبار و يبللنا العرق , ماذا أقول لك يا أستاذ ؟ نحن مثل هذه الكتب , هي معروضة على رصيف الشارع , و نحن نعيش على رصيف الحياة مهملين منسيين لا يرانا أحد و لا يهتم بنا أحد .

لقد أثر كلامه بي , قلت في نفسي يبدو أن هذا البائع ليس جاهلاً أو أمياً بل هو على درجة من الثقافة و المعرفة و حديثه هذا دليل على ذلك .

أخرجني سؤاله من شرودي و تفكيري حين قال :

ـ أي أستاذ .. ماذا قررت ؟ صدقني لن تندم .

ـ حسناً سأشتريه رغم أن ما لدي لا يزيد كثيراً عن خمسة آلاف ليرة .

ناولتها للبائع الذي بقي وجهه محتفظاً بالتعابير المحايدة نفسها , و كأن شيئاً لم يكن , حملت العلبة و توجهت إلى السيارة التي ستقلني إلى البيت لأنفرد بالكتاب و أتصفحه .

*****

تساؤلات و مشاعر متناقضة تنتابني تجاه هذا الكتاب و تجاه البائع , هل هذه المجلدات هامة حقاً ؟ أم أنها مجلدات تافهة لا قيمة لها , لا تستحق إلا الرمي في حاوية القمامة ؟ و البائع , ذاك الرجل الذي حدثني بكلام معسول بمنطقه و إقناعه هل هو نصاب محتال باعني ورقاً مخطوطاً بكلام سخيف لا قيمة له ؟ أم أنه باعني فعلاً مخطوطاً مهماً ذا قيمة فكرية و أدبية ؟

قال الكتاب نادر , فعلاً هو كتاب نادر لا شك في ذلك انه مخطوط مكتوب بخط اليد في كل صفحة حوالي أربعة أو خمسة أسطر بكلمات كبيرة , و لكن هل لهذا الكتاب قيمة ؟ هنا السؤال المحير الذي حيرني و أربكني , وجعلني غير قادر على الحكم على الكتاب البائع , أما النقود التي دفعتها ,أي الخمسة آلاف ليرة (فقط) شعرت بأنني أعطيتها له ليس فقط بدافع الشراء , و إنما إحساس مني بالشفقة عليه , و التعاطف مع حالته الإنسانية و حديثه المؤثر , رغم أن حالتي ليست أفضل حالته منه بكثير .

بعد طول أناة و تفكير قررت أن أدع المجلدات جانباً لمدة أسبوع ثم أحاول قراءتها مجدداً لأعرف ماذا سأفعل بها , و هذا ما كان .

*****

قرأت المجلدات العشرة , باهتمام حيناً و بدافع الفضول حيناً آخر , و بعد قراءتها ازدادت حيرتي و تساؤلاتي , و انتابتني حالة لم أشعر بها من قبل في حياتي كلها , حالة من التشتت و الضياع و عدم اليقين و عدم معرفة السلوك الصحيح الذي يجب على اتخاذه .

المجلدات عبارة عن مخطوط لعمل روائي يسرد فيه كاتبه المجهول قصة حياته من أيام الطفولة و حتى مرحلة كتابة هذا النص , و قد قدرت عمر الكاتب بأنه في العقد السادس , ينتهي النص نهاية غامضة لا يُفهم منها هل بقي المؤلف على قيد الحياة أم أنه مات ؟ هل أنهى النص فعلاً أم أنه كان سيكمل النص لو تسنى له ذلك ؟ يقول :

(أسمعُ أحدَهم يناديني :

ـ أستاذ .. يا أستاذ ... لقد أنهيت الرسم ألن تأتي لتراه ؟

ـ حسناً .... سأتبعكَ حالاً .. اذهب الآن .

هؤلاء الأشقياء لا يدعونكَ ترتاح أبداً ... و لذلك أحبهم .. سأتركَ الآن .)

ترى هل ترك نصه بغتةً لسببٍ طارئ أم أنه كان ينوي إكماله ؟ و أنا ماذا سأفعل بهذا النص ؟ هل أرميه و أمزقه نتفاً أم أحتفظ به ؟ و لمن سأحتفظ به ؟ من صاحبه ؟ النص جيد و مكتوب بأسلوب متقن يدل على أن كاتبه متمرس في الكتابة و ليس هاوٍ , و أنا محتار بين إتلافه ـ و أنا غير قادر على ذلك شعوراً مني بقيمة النص ـ و بين طباعته و نشره حتى يرى النور فهو يستحق ذلك , ثم إذا طبعته و نشرته باسم من سأنشره ؟ باسمي ؟ هل أقبل على نفسي أن اسرق جهد شخص آخر و حياته و سيرته و أنسبها زوراً لي ؟ لا ... لا يمكن .

لقد طالت تساؤلاتي كثيراً , و أصبح هذا المخطوط عبأً على و مبعثاً للهم و القلق و الحيرة , كان قد مضى شهر على شرائه , قررت العودة إلى الرصيف الذي اشتريته عنه لعلي أرى البائع و أستفسر منه عن صاحب المخطوط , ممن اشتراه ؟ من هو؟ ماذا يعمل ؟ أين يقيم ؟

الحمد لله تنفست الصعداء بارتياح , الكتب معروضة بالمكان نفسه , اقتربت من البائع سأله استفسرت منه شرحت له ..لكنه لم يتذكر شيئا , و أكد لي أنه منذ سنوات عديدة يعرض كتبه على هذا الرصيف , و قد رآني مرات كثيرة أمر قربه و أتصفح الكتب و العناوين و لكنه لم يتحدث إلي أبداً كما أني لم أشترِ منه أي كتاب , قال لي أنني أمضي وقتاً طويلاً بتأمل الكتب ثم انصرف دون أن أشتري أياً منها , عدت إلى بيتي تأكلني الحيرة و الهواجس , هل أنا أحلم ؟ لكن المخطوط بمجلداته العشرة رابض على المكتب أمامي و كأنه جبل من الهموم و الأفكار المقلقة , هل كان ينقصني ذلك ؟ هل أنا بحاجة إلى ما يزيدني تعباً و قلقاً ؟

و ذاك الرجل الذي جاءني كالحلم و صفعني تلك الصفعة المدوية و المؤلمة من هو ؟ هل هو كاتب النص ؟ هل أراد من خلال صفعته تلك أن يقول لي انه أخذ حقه مني مكتفياً بتلك الصفعة ؟ و مضى متلاشياً تاركاً هذه الأمانة الثقيلة بين يدي أتصرف بها كما يحلو لي ؟ لا أدري لقد عجزت عن اتخاذ أي قرار بشأن هذا المخطوط , حقاً كما قال لي ذاك البائع الوهمي – الحقيقي انه كتاب هام أي يبعث الهم في النفس , و نادر نعم هو نادر في ملابساته , و سيكون أكثر الكتب إشغالاً لي في مكتبتي . ها قد مضت عدة أشهر , و أنا ما زلت محتاراً و عاجزاً و مهموماً , أقرأ المخطوط و أعيد قراءته مجدداً , و كلما قرأت فيه تتسع حيرتي و يزداد همي... لا تلبث تلك الحيرة أن تنحسر. ... إنه كتابي أنا .. فأنا اعرف كل شخصياته.. لقد تلبستني و تلبستها , وقد عرفت نفسي فيه. حتى بت أظن أنني عشت ما يرد فيه من أحداث و وقائع . نعم ... إنه كتابي , رغم أن هذا الخط ليس خطى , و ما ورد في الكتاب هو جزء من حياتي و عليَّ الآن أن أكمل ما بعد الرسم.

تغطية صحفية

"الأستاذ ... نتشرف بدعوتكم لحضور المهرجان الشعري العربي الذي يقام في مدينة ... لمدة أسبوع بدءاً من .....و لغاية .....بحضور عدد كبير من الشعراء و الكتاب السوريين و العرب , آملين حضوركم للمشاركة و التغطية الإعلامية "

كنت أقلب بطاقة الدعوة المرفقة ببرنامج المهرجان و مواعيد النشاطات و المشاركين فيها بين يدي , أقرؤها بين الحين و الآخر. لفت نظري اسم شاعر عربي لم اسمع به من قبل , نسبه يشير إلى أنه من أحدى الأسر الحاكمة في الخليج , فقلت في نفسي سأسمع شعره لعله يكتب شعراً حقيقياً جميلاً بعكس ما نعرفه عن الأمراء ـ الشعراء الذين ينطبق عليهم قول : " و ما علمناه الشعر " , و إذا كان شعره جميلا فسأجري معه حواراً صحفياً , هكذا كنت أفكر لتمضية الدقائق الأخيرة قبل الوصول إلى تلك المدينة النائية عن العاصمة , القابعة على ضفة الفرات , و المحاطة بالبادية المترامية الجرداء التي تسرح فيها الرياح و الغبار .

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلا , فقد انطلقنا من العاصمة الساعة السابعة مساء ,أرغب بالسفر نهاراً هذه عادتي حتى أتأمل المناظر الطبيعية على جانبي الطريق , ولكن هذه السفرة لم أندم لأنها تمت في الليل , فقد خبرت الطريق في سفرات سابقة , طريق أعجف تحيط به الأراضي الصحراوية العارية , لا مناظر ولا من يفرحون , و بين الساعة و الأخرى ربما ترى واحة صغيرة من أشجار النخيل معزولة بهذا الخلاء الصحراوي اللامتناهي , لذلك ما إن خرجنا من العاصمة حتى استرسلت في النوم رغم كرهي له في السفر , أمضيت معظم الوقت إما نائما أو متناوماً حتى لا اشعر بطول المسافة .

عندما وصلنا مشارف المدينة باغتتنا رائحة الغبار , أخذ البولمان يتمهل و يخفف من سرعته ,علامات التساؤل بدأت تظهر على الوجوه فقد كان البولمان مليئاً بعدد كبير من الإعلاميين من مختلف وسائل الإعلام , صحف , إذاعة , تلفزيون , و بعض الضيوف الآخرين فالمهرجان مهم و تشارك فيه أسماء مشهورة ومعروفة من الأدباء والشعراء والنقاد على مستوى الوطن العربي , لم تطل تساؤلاتنا الصامتة فقد جاءت الإجابة من ممثل إدارة المهرجان الذي أوضح لنا عبر ميكرفون البولمان أن المدينة شهدت خلال الأيام الثلاثة الماضية عاصفة غبارية يسمونها (الطوز) و هي عبارة عن رياح جنوبية ـ شرقية قادمة من الصحراء مليئة بالغبار الأحمر اللون , و نحن في نهايات هذه العاصفة الغبارية , فقلت في نفسي :

ـ يا سلام .. لم يكن ينقصني إلا الطوز فانا أعاني من ضيق في التنفس و بقايا ربو طفولي وتزعجني جدا هذه الأجواء .

بعد دقائق قليلة وصلنا إلى الفندق تم توزيعنا على الغرف المحجوزة لنا ,كل شيء مرتب و منظم , ابلغونا أن العشاء جاهز لمن يريد و أعطونا مهلة ربع ساعة لوضع أمتعتنا و تبديل ملابسنا , و التوجه الى قاعة المطعم في الطابق العلوي من بناء الفندق .

دخلت الغرفة رائحة الغبار تملؤها , رغبت أن اخذ حماماً سريعا لإزالة أثار التعرق و التعب , و لعلني أصحصح قليلاً , حتى الحمام مغطى بذرات الغبار الحمراء رغم عدم وجود أي نافذة فيه سوى منور صغير للتهوية , عجبت كيف يستطيع أهالي هذه المدينة العيش و تحمل هذه العاصفة التي تبقى عدة أيام , حتى خزانة الملابس وصل إليها الغبار , دعوت راجياً أن تنتهي العاصفة غدا صباحا كما ابلغونا , أخذت حماما سريعاً لبست ثياب الراحة و توجهت إلى قاعة المطعم .

****

مضت ثلاثة أيام من المهرجان , نشاطات كثيرة في مركز المدينة و في بلدات تابعة لها , حضور لافت من الناس ,انه احتفالية ثقافية حقيقية تعجز الجهات الثقافية في العاصمة عن تنظيم مثلها , دعوات من قبل بعض الأعيان لولائم تقام على شرف الضيوف , رحلات اطلاعية إلى بعض الأماكن الأثرية في المحافظة , كل شيء مرتب و منظم و كل ساعة في النهار محسوبة لنشاط ما ,هناك حوالي ساعتين ظهراً للغداء و الاستراحة , أما بعد الساعة التاسعة ليلاً فهو وقت حر نمضيه كما نشاء . خلال تلك الأيام لم أنسَ ذاك الشاعر الذي قرأت اسمه في برنامج المهرجان , و كنت أحاول التعرف إليه بطريق غير مباشر من خلال الأحاديث , فلا بد أن تلعب المصادفة دورها و نجلس على طاولة واحدة , أو نلتقي عرضاً في أحدى الأمسيات , لكن ذلك لم يحدث , فقلت حسناً لا بأس لا بدَّ أن أراه خلال الأمسية التي سيلقي فيها شعره .

كنا جالسين في قاعة المطعم الكبيرة التي اختاروا لها مكاناً جميلا هو الطابق العلوي , تطل على المدينة من كل الجوانب ,نرى من إحدى النوافذ سطح مياه نهر الفرات تنعكس عليه أشعة القمر الفضي المكتمل , نحن في أواسط شهر أيار , و هذه المدينة حارقة في النهار لكن طقسها في الليل في مثل هذه الأيام لطيف و جميل , توزعنا على الطاولات هنا وهناك , مجموعاتٍ مجموعات , تدور الأحاديث للتعارف و التثاقف والتسلية , شخصيات من سوريا ولبنان المغرب , مصر, ليبيا , قطر, السعودية ...من أغلب الدول العربية , ما

بين شاعر وناقد و إعلامي , و الكل منهمك في الحديث في كل شيء و عن كل شيء , و للحق كانت تلك الجلسات من أجمل ما في المهرجان , تتناوب فيها أحاديث الفكر والثقافة و الطرائف و الترفيه , خاصة إذا علمنا كرم الضيافة ,و حفاوة الاستقبال , الطعام على أنواعه , المشروبات كذلك , و هذا أمر غير معتاد في مثل هذه المهرجانات , خاصة و أننا في مدينة تعتبر محافظة في عاداتها و تقاليدها , في البداية كنا على شيء من الحذر و التردد في طلب المشروب , فقط شاي , قهوة , زهورات , مياه غازية , و لكن حين كشف لنا منظم المهرجان أن من يرغب بتناول المشروبات الروحية فالأمر متاح , عندئذ انهمك كثيرون بطلبها و احتساء كميات كبيرة منها , و قد أودى ذلك بآخر رمق من الخفر و الحذر و التحفظ بين المدعوين , فانطلقوا في جوٍّ من المرح الذي صار رقصاً و طرباً .

لفت نظري بين الموجودين شخص رقيع المنظر , رث الثياب , متهالك الجسد يجلس في زاوية نائية و مظلمة مع رفيق له , تأملته ملياً كان يتحدث بطريقة متعبة , و حركات يديه تتأرجح غير متناسقة مع كلامه , استغربت حالته و قد اعتزل الجميع منفرداً بذلك الشخص , سألت عنه جلسائي على الطاولة فلم يعرفه أحد , مما زاد فضولي للتعرف إليه , بعد قليل انضم إلينا احد المشرفين عن تنظيم المهرجان , حاملاً كأسه بيده , راسماً ابتسامة واسعة على وجهه , متنقلاً من طاولة لأخرى , مرحباً بالضيوف للمرة الألف , سألته عن ذاك الشخص , فقال لي بلهجة مبطنة و محيرة , ما بين التعريف و السخرية :

ـ هذا ضيف مشارك بالمهرجان و هو الأمير الشاعر (.....) .

و نظر إلي نظرة ذات مغزى , ثم شعر باستغرابي و دهشتي و قد ظهرت علائمها على وجهي , فأراحني من السؤال و بادر مضيفاً :

ـ لا تندهش يا أستاذ هو هكذا دائماً .

يا للمصادفة انه الشاعر الذي أفتش عنه للتعرف إليه , و لكن لم أتوقع أن يكون مظهره مزرياً لهذا الحد سالت محدثي :

ـ ماذا تقصد بقولك هو هكذا دائماً ؟ هل هو مريض ؟

أجاب : لا .. أبداً , ما شاء الله عليه يكرع لتراً من الويسكي في السهرة , فهو كما تراه , هذه حالته .... سكران .

قلت ملمحاً إلى مظهره المزري : و لكن شكله لا ينم عن انه من أسرة حاكمة و معروفة بثرائها .

أجابني : هذا الشخص الذي تراه هو من الجناح المستبعد عن المال و السلطة في تلك العائلة .

صمتُّ قليلاً , نظرتُ إلى ذلك الشاعر المنطفئ بسكرته , و علامات الدهشة على وجهي , و شعور الخيبة في نفسي , للمفارقة الكبيرة بين الاسم و الشكل , أكمل محدثي قائلاً :

ـ يا أستاذ هذا الشاعر يدعونه كل عام للمشاركة في المهرجان لا أدري لماذا , هو يأكل و يشرب الويسكي بنهم مفرط , و حين يجيء موعد الأمسية التي يُفترض أن يلقي فيها شعره , يكون قد انطفأ تماما من السكر , فيتم الاعتذار من الحضور .

قلت : بما أن الأمور تجري هكذا لماذا تدعونه و تتحملون نفقات إقامته و سفره و سكره أيضاً ؟

فزمَّ شفتيه , و قلب يديه معترفاً دون كلام أنه يجهل السبب , و أضاف غامزاً مني و من عملي الإعلامي :

ـ هل تريد أن تجري معه حوارا صحفياً ؟

قلت : كنت أوي ذلك .

سألني : و الآن ؟

التزمت الصمت , فأجابني بكل هدوء :

ـ لا داعي للجواب لكن إذا تسنى لك ذلك افعل , و لا أظنك ستفعل فهو كما تراه :

كلما استيقظ من سكرته جذب الزقَّ إليه و اتكى

و سقاني أربعاً في أربع

كاسك يا أستاذ , نخب الشعر الحديث و القديم , نخب المهرجانات الأدبية و غير الأدبية , بصحتك . بصحتكم جميعاً .

رفع الكأس إلى شفتيه , عبَّه دفعة واحدة , ثم أطلق ضحكة مجلجة , غير مكترث بأنْ لا كأسَ أمامي و أن تساؤلاً عميقاً ولد في داخلي :

ـ تُرى هل يضحك مني ؟ أم من ذاك الشاعر ؟ أم منا جميعاً ؟

علت الموسيقا , نهض أحد النقاد الأكاديميين المشهورين حاملاً كأسه بيده عازماً على الدبكة , داعياًَ الآخرين لمشاركته , فلم يتوانوا عنه , و ضجت القاعة بالغناء و الدبكة و الصخب .

السالت

تأملته ملياً بينما هو مستغرق في قراءة الجريدة حيناً , و حل الكلمات المتقاطعة حيناً آخر , و في نفسي فضول يدفعني للحديث معه .

كنت جالسا في الحديقة , و هي أجمل مكان في المدينة , تدخل إليه دون استئذان من أحد في أي وقت تشاء , و تخرج منها متى تريد , لذلك كنت أمضي أغلب وقتي أما متجولا في الشوارع بلا هدف , أتأمل واجهات المحلات التجارية و ما تعرضه فيها من ملابس و سواها , أو مراقبا وجوه المارة بما ينعكس عليها من مشاغل و متاعب , سعادة أو بؤس , شقاء أو نعيم , أو جالساً في الحديقة أفكر في اللاشيء , منذ سنوات عديدة و أنا أتردد على هذه الحديقة حتى بت أشعر إنها محطة يومية لي , و إذا صدف يوم و لم أمر عليها يعني أن هناك فراغا ما في سلوكي , صحيح أنها حديقة متواضعة مساحتها صغيرة تخلو من الأشجار المعمرة و السامقة التي تنشر ظلاً وارفا على روادها , و لكنها على كل حال حديقة , فيها عشب و شجيرات و مقاعد خشبية موزعة هنا و هناك لا يطالها الظل , إلا ما ندر , و ذلك خير من عدم وجود مكان عام يرتاح به المرء دون أن يدفع نقوداً , لقد رأيت هذا الشخص مرات كثيرة , شخصاً هامشياً مهمشاً مشرداً , في العقد السادس من عمره , مربوع القامة , يتدلى كرشه أمامه , يمشي ببطء متثاقلاً مبعداً ما بين رجليه من كثرة ما يحشو في جيوبه من أوراق و صحف و علب سجاير و أكياس فارغة و بقايا أرغفة خبز يابسة , حتى الفانيلا الكحلية الكاحتة اللون المتسخة و التي بالكاد تغطي كرشه دسَّ فيها بعضاً من أشيائه التي يحملها , لذلك ترى بنطاله (سالتاً) يكاد يسقط على الأرض , عارضاً عورته على الملأ , و حتى لا يحدث ذلك ربطه بسلك كهربائي , فأصبح بالكاد عالقاً بوركه العريض من سُمنته , يستر النصف الأسفل من عورته , و الباقي ظاهر لنظرات رواد الحديقة الشزراء المشمئزة , نظرت إليه , ملامحه محيرة , وجهه نظيف , حليق الذقن , شعره غير متسخ مقارنة بثيابه الرثة و الوسخة , عيناه تشيان بلامبالاته تجاه كل شيء , جريدته بين يديه , يطالع فيها , و القلم بيده الأخرى يبدو كأنه يحل الكلمات المتقاطعة , و بين الحين و الآخر يضع القلم جانباً , يدس يده تحت إبطه , و يبدأ الهرش و الحك ثم يخرج شيئاً يدعكه بأصابعه ثم يقذف به و يعود إلى حالته السابقة , إلى كلماته المتقاطعة كحياته بألف لغز و غموض و إبهام .

ارتفعت بنظري عنه و تأملت الأبنية المحيطة بالحديقة و لوحات الإعلانات التي توضعت على جدرانها و أسطحها (متة العم ... اشرب و لا تهتم) قربها صورة بالمقلوب و كتب عليها (اقلبها ... عيشها غير) شعارات حزبية و صور تعود إلى سبعينيات القرن الماضي

, نسيها من علقها , إذا لم يكن قد توفي , فاعتلاها الغبار و الدخان و الهباب الأسود , هنا كل شيء على حاله منذ أن جئت إلى هذه المدينة قبل أكثر من ثلاثين عاماً , تغييرات طفيفة لا تذكر , باستثناء الفندق الكبير (الفورسيزن) الرابض غرب الحديقة بشموخ و اعتزاز , بعد أن التهم مكان (نادي دمشق الدولي) و مقر مجلة (الثقافة) و بعض المحلات و البيوت العربية القديمة , فارتفع في الفضاء بحجارته البيضاء مطلاً بكبرياء و غرور على الحديقتين المحيطتين به متمنياً لو كان بإمكانه ضمهما إليه , حتى لا يقترب منه أولئك البؤساء .

تحولت بنظري إلى التكية السليمانية بمناورها التي تشبه المآذن الصغيرة و قبابها الصامتة المغبرة التي اعتلتها الطحالب , و التي تكتم حكايات قرون من الزمن لتعود بك إلى القرن السادس عشر ميلادي .

(إيه ... أي زمن مضى على هذه المدينة التي كانت توصف بأنها قطعة من الجنة) قلت ذلك في نفسي متألماً مما وصلنا إليه , لأننا لم نحتفظ بجمال الماضي و بساطته , و لم نلحق بركب المدن الحديثة النظيفة و الجميلة , بقينا معلقين بين .... بين كبنطال هذا الرجل المشرد نصف السالت , ألقيت نظرة إليه كان يحاول النهوض مثقلاً بما دسه في جيوبه الممتلئة بما هبَّ و دب , الجريدة في يد , و الأخرى يستند عليها للوقوف , هبطت عجيزته المربربة على حجارة الحاجز الذي يفصل ما بين الأرض المعشبة و الممرات المرصوفة في الحديقة , فكرت هل أقوم بمساعدته , هل أمد له يدي ليمسك بها و ينهض , لكنه كف عن المحاولة و عاد إلى حالته السابقة , أنا أيضا عدت إلى تفكيري السابق , إلى الفراغ الكبير الذي أحاول ملأه باللاشيء كهذه الحديقة , كهذا الرجل , كهذه المدينة المعلقة بين الماضي و الحاضر , تأملت سطوح القرميد التي تغطي بناء الجامعة بلونها الترابي , كانت الحمائم تهدل على أطرافها بهدوء و سكينة , مرَّ شاب يمسك بيد فتاته , جلسا على مقعد قريب مني , الرجل السالت يغطَّ في تأملٍ عميق , تراخت يده عن الجريدة التي ما زلت منفرشةً على أمامه , ظننته نائماً , اقتربت منه , ألقيت نظرة على جريدته , فإذا بكلماتها ممحوة من أثر تعرقه و قد تآكلت حروفها و صارت غير مقروءة , اقتربت أكثر لأجد أي مبررٍ للتحدث إليه , فانتفض في وجهي كمن فوجئ بشخص يدنو منه أكثر من المعتاد , و أخذ يؤشر بيديه الاثنتين بحركات سريعة تدل على غضبه , و كأنه يقول لي : (ماذا تريد مني ؟ دعني و شأني) , أنا أيضاً فوجئت بيقظته و حركاته السريعة , و عندما لم يفُه بأي كلمة , التزمت الصمت , و أدرت ظهري إليه متجهاً نحو باب الحديقة , نظرت إلى

ساعتي , ما زال لدي الكثير من الوقت لتبديده قبل التوجه إلى البيت , خطوت على مهل متباطئاً و محتاراً في أي اتجاه سأمضي , و ليست لدي أي رغبة بالحديث إلى أحد .

مع الخيام

ـ يا ناس ... يا عالم ... يا خلق الله ... يا هووو .. أرجوكم قولوا لي ماذا أفعل ؟ هل وجد أحدكم نفسه في مثل هذا الموقف الذي أنا فيه ؟ هل يستطيع أحد منكم مساعدتي ؟

كنت أصرخ في داخلي بصمت , كنت أحترق و أتعذب و أنا في حيرة من أمري , أتأمل هذا الجثمان المسجَّى مرتاحاً راحته الأبدية , ممدداً في هذه الغرفة الموحشة أنقل نظري بينه و بين أخوَي الصامتَين المعذَّبَين مثلي و المحتارَين , و وجوهِ بعض الأصدقاء المقربين للفقيد و لنا , أعود بنظري إلى هذا المسجى , المكفَّن بصمته و لامبالاته , أخينا الرابع الذي توفي بالأمس و وضعنا في موقف لم نتوقع أن نوضع فيه في يوم من الأيام .

لسنا حزينين و معذبين بسبب موته , و إن كان موته قد سبب لنا حزناً و ألماً و غصةً في الحلق و دمعةً في العين , نحن نؤمن أن الموت حق , و نعتقد أنَّ كلَّ مَنْ عليها فانٍ و لا يبقى إلا وجهُ الحي الذي لا يموت , أو كما يقول الشاعر ـ باعتبار المسجى أمامنا شاعراً ـ :

كلُّ ابنِ أنثى و إن طالت سلامته لا بدَّ يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ

لا بل وافقنا بصمت على قول أحد أصدقاء الفقيد , مردداً عبارةً قرأها للكاتب الألماني ارش ماريا ريمارك : (كلنا نعلم بأننا سنموت يوماً و لكن لا أحد يريد تصديق هذه الحقيقة) , فقد صدقنا و آمنا بالموت , و لكن ما لا نستطيع تصديقه أو تخيله , حتى قبل ساعة من الآن , هذا الموقف الذي وضعنا فيه أخونا هذا المسجى أمام أنظارنا الذي جعلنا في حالة من الحيرة و الإرباك و الغضب ! نعم الغضب , نحن غاضبون .... و غاضبون جداً , و لكن بصمت , لأن حرمة الموت تفرض علينا الحزن أو التظاهر بالحزن و الصمت على أقل تقدير , و كتمان أي مشاعر أخرى حتى لا ننفضح بين الناس , و يبدو أن قصة الصمت هذه ستكلفنا كثيراً بعكس ما كنا نعتقد بأن فيها السلامة .

بالأمس توفي أخونا بعد معاناة مع المرض , نقلناه إلى المشفى بعدما ساءت حالته جداً , رفض في البداية لكنا ألححنا عليه حتى قبِلَ , هناك أدركته رحمة الله و قضى نحبه , جئنا به لدفنه و هنا بدأت المشكلة . أمضى هذا الأخ ـ الميت حياته كلها بين الكتابة و القراءة و التعليم , فقد كان مدرساً للغة العربية , و بعد أن أمضى قرابة عشرين عاماً في التدريس شعر بالتعب و الإرهاق , فانتقل إلى عمل إداري , و أصبح أميناً لمكتبة المدرسة , بين كتبها و رفوفها أهرق ما تبقى من عمره و بصره , حتى في بيته كان يلوذ بمكتبته الصغيرة

بين أوراقه و كتاباته مبتعداً عن الناس , مفضلاً العزلة و الوحدة , فهو كما قال كازانتزاكي الكاتب اليوناني (فأر قارض للورق) بامتياز , لا يكل و لا يمل من القراءة , و إذا ما أراد الترويح عن نفسه ألتفت إلى آلة التسجيل الموضوعة قربه و أخذ يستمع بصمتٍ و خشوعٍ بالغ إلى أم كلثوم و هي تغني (رباعيات الخيام) , قصته مع الخيام و رباعياته بحد ذاتها معضلة وجودية شائكة , هذا ما علمناه فيما بعد . رحمه الله بقي وحيداً و لم يتزوج حتى لا يتحمل عبء الزواج كما كان يقول , فترك عبأه علينا , لا أحد منا يعرف سبب عزوفه عن الزواج , و رغم محاولاتنا الكثيرة لزجه في علاقة زوجية لم نفلح , فقد كان موقفه قاطعاً و جازماً في هذا الأمر . أمضى حياته بين العمل و المنزل , عددٌ قليلٌ من الأصدقاء يزورونه بين الحين و الآخر , يتحدثون عن التدريس و الطلاب و الشعر , فأخي هذا ـ المسجى أمامنا بصمته ـ كان مولعاً بالشعر و يعتبر نفسه , و نحن أيضاً نعتبره , شاعراً ملهماً و عبقرياً فذاً , كثيراً ما كان يقرأ علينا بعضاً من شعره , كما كان يدعونا لحضور الأمسيات الشعرية التي يشارك فيها و التي تقام في المركز الثقافي في البلدة , بتشجيع من أصدقائه أصدر مجموعتين شعريتين لم تلاقيا صدى طيباً في الأوساط الثقافية , و كُتِبَ عنهما نقدٌ قليلٌ و لكنه جارح , فقد وصفه أحد النقاد بأنه شاعر من الدرجة الرابعة أو الخامسة , و وصف رباعياته ـ للعلم فان أخونا هذا المسجى أمامنا الآن ـ حاول الكتابة على منوال رباعيات الخيام ـ وصفَ ذاك الناقد كتابته بأنها تقليد رديء و ممسوخ لرباعيات الخيام . لقد شعر حينها أخونا بالحزن و الألم , و اعتكف في بيته أسبوعاً لا يخرج منه و لا يستقبل أحداً , و عندما فكَّ حدادَه ازداد يقيناً و قناعةً بأنه شاعرٌ ممتاز , و أن هذا الناقد التافه ـ كما وصفه ـ لا يفهم في النقد و لا في تذوق الشعر , نحن أيضا أكدنا له ما ذهب إليه و جاريناه في رأيه , و ليتنا لم نجارِهِ و لكن فات الأوان .

أخونا هذا المسجى أمامنا الآن كان مولعاً بالشاعر الفارسي عمر الخيام و قد احتفظ في مكتبته بكل ما كتب عن هذا الشاعر و العالم و الفيلسوف مما وقع بين يديه من دراسات و مقالات , الرباعيات موجودة في مكتبته بعدة ترجمات , نسخة منها بترجمة الشاعر المصري أحمد رامي المزينة برسوم الرسام جمل قطب , و نسخة أخرى بترجمة العراقي أحمد الصافي النجفي , و نسخة ثالثة نادرة بترجمة أحمد زكي أبو شادي مزينة برسوم جميلة بالحبر الصيني , و نسخة رابعة في كتابٍ يضم الرباعيات مكتوبةً بخمس لغات , الانكليزية و الفرنسية و الألمانية و العربية و الفارسية , في كتابٍ مطبوعٍ طبعةً إيرانية أنيقة عن مؤسسة انتشارات مرفقة بلوحات رائعة لفنانين إيرانيين مستوحاة من أجواء الرباعيات , كثيراً ما كان يتصفحه و يتأمل اللوحات , ثم يغرق في حلم لذيذ و هو يستمع لأم كلثوم تغني رباعيات أحمد رامي بصوتها الشجي , يعيش معها و يحلق في أجوائها ,

يعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي إلى زمن الخيام , يتمثل حياته و معاناته مع معاصريه , يُعايش أسفاره مع تلك القوافل التي تعبر الصحراء من نيسابور في خراسان إلى سمرقند , إلى أصفهان , يستحضر صداقاته مع نظام الملك الذي أصبح وزيراً فيما بعد , و حسن الصباح الذي أصبح زعيم قلعة آلموت , تتراءى له المغامرات التي عاشها , يغفو على أنغام السنباطي و صوت أم كلثوم , و هي تشدو بعذوبة و سحر متنقلة من الراست في رباعية (سمعت صوتاً هاتفاً في السحر) إلى مقام النوا حين تقول : (غدٌ بظهر الغيب) , نعم الغيب الذي لا يدرك كنهه إلا الله , و عندما تصل إلى نغمة الهُزام من مقام السيكا و هي تقول (القلب قد أضناه عشق الجمال) يذوب متمايلاً برأسه سارحاً في عوالمَ فسيحةٍ لانهائيةٍ , لا حدود لها , إنها من اللحظات السحرية المقدسة لديه , يجعلنا جميعاً منصتين بخشوع و صمت , دون أي كلمة حتى لا نقطع عليه تجلياته الروحية مع صديقه الخيام , كثيراً ما كنت أراه يُعيدُ قراءة رواية (سمرقند) لأمين معلوف لأنها تحكي عن الخيام و قصة مخطوطة الرباعيات و انتقالها من بلد إلى بلد , بما فيها من حقائق و خيالات و أوهام , لا بل كانت شطحاته الخيالية تصل به إلى القول أنه هو الخيام , في حياةٍ سابقةٍ له قبل هذه الحياة , كنا نستمع إلى ما يقول و نصمت حتى لا نجرح مشاعره , و نعتبر ذلك هفوةً شعرية أو شطحةً خياليةً لا داعي للرد عليها , فهي لا تضر أحداً , و لن تفيده في شيء , فليتخيل نفسه كما يشاء .

لكن الآن , و في هذه اللحظة أدركنا أنه كان يجب علينا أن نوقفه عند حده , أن ننتفض في وجهه , أن نقول له كفى هذراً و خيالاً , أنت أخونا فلان ابن فلان تعمل مدرساً , و حالك كحالنا شبه مفلس , و تعيش بيننا في هذه البلدة في القرن الحادي و العشرين , قرن العلم و التكنولوجية و اختراق الفضاء , فكفَّ عن هذه الخزعبلات و الشطحات التي لا داعي لها , استيقظ من أحلامك , لكننا لم نفعل , راعينا مشاعره , فضَّلنا الصمتَ , و ها هو مسجَّى أمامنا صامتاً , يريد أن يجعلنا ندفع ثمن صمتنا , غير مراعٍ لمشاعرنا و حالنا , هذا إن كنا قادرين على دفع هذا الثمن .

اجتمع أهل البلدة حولنا يشاركوننا الحزن عليه , و يعرضون المساعدة , لقد تمت كل الإجراءات و بقي أمر واحد , حينها أصبحنا مشلولين مربكين , تبدو على وجوهنا علائم الانكسار و الخيبة , بدأت التساؤلات على الوجوه و الهمسات في الآذان , ماذا يجري ؟ لماذا لا يُخرِجون النعش إلى مقبرة القرية لدفنه هناك ؟ هكذا كان يتساءل المشيعون , و لكنهم لا يعرفون ما نحن فيه , الهمهمات في الخارج كثرت , تبادلنا النظرات فيما بيننا , نحن أخوته و أصدقاءه المقربين , لا مناص من وضع الجميع في حقيقة الموقف , من

استشارة المقربين في كيفية التخلص من هذا المأزق الذي وضعنا فيه هذا الأخ المسجَّى بكامل كفنه و صمته . و ها هي الحقيقة .

قبل ساعة من الآن و بينما كنا نبحث بين أوراقه التي أوصانا بحفظها و الاهتمام بها بعد وفاته , وجدنا ظرفا صغيراً كتبت عليه كلمة (وصيتي) , لقد فوجئنا بهذه الكلمة و نحن نعلم أنه لم يوصِ أحداً أبداً , و من باب الفضول قرأنا ما هو مكتوب على قصاصة الورق الصغيرة الموضوعة داخل الظرف :

(أخوتي الأحباء , أصدقائي الأعزاء :

ها أنتم تقرؤون و صيتي بعدما مت , أنا ممتنٌ لكم جميعاً على كل الرعاية و الاهتمام بي في وحدتي , فقد كنتم خير الأهل و نعم الأصحاب , كنتم سندي في كل مأزقٍ مررت به , و أنسي في كل جلسةٍ جميلةٍ و لحظةٍ لطيفةٍ عشتها , و لولاكم لكانت حياتي جحيماً , فأنتم من جعلها نعيماً و هدوءاً و سكينةً , و أنا لا أريد منكم الآن إلا أن تكملوا جميلكم معي و تسعدوني في آخرتي كما فعلتم في دنياي .)

ـ خيراً ماذا يريد منا ؟ و بماذا نستطيع أن نخدمه بعد أن توفي ؟ كل ما يتعلق بواجب الوفاة و العزاء سنقوم به على أكمل وجه و لا داعي لوصيةٍ في هذا الأمر فماذا يريد ؟ هل يريد منا أن نجمع ما كتب من أشعار و نطبعها ؟ هذا ما خطر في ذهني للوهلة الأولى .

(نعم هذا رجائي منكم , و كلي يقين أنكم لن تبخلوا علي بتحقيق هذه الأمنية الأخيرة , أنتم تعلمون ولعي و عشقي للشاعر عمر الخيام , و قد حدثتكم عن ذلك كثيراً , و كنتم تستمعون بكل تقدير و احترام لما أقول , و إن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على تصديقكم لي و اقتناعكم بكلامي , حتى عندما أخبرتكم أنني أنا عمر الخيام في سالف حيواتي السابقة , صمتم و هززتم رؤوسكم تصديقاً و اقتناعاً كما أظن , و ما أكد لي ذلك أنني في مرضي الأخير رأيت في المنام رؤيا زادتني قناعةً و يقيناً , فقد رأيت شيخاً جليلاً بلباسٍ أبيضَ أسمعني هذه الرباعية :

سرى بجسمي الغضِّ ماءُ الفناءْ

وسار في روحي لهيبُ الشقاءْ

وهِمْتُ مثلَ الريحِ حتَّى ذَرَتْ

ترابَ جسمي عاصفاتُ القضاءْ

ثم أمسك بيدي و ناولني شربةَ ماء و قال لي : تعال إلي أنا بانتظارك , فأنت مني و أنا منك . و أمسك بيدي و اتجهنا سويةً باتجاه الشرق , حينها تأكدت أننا روحٌ واحدة , لذلك أطلب منكم أن تعيدوني إلى بلادي , و أن تدفنوا جثماني هذا المسجى أمامكم في أقصى الشرق , هناك قرب ضريحي السابق في نيسابور و لكم الأجر و الثواب) .

هذا ما لم نحسب له حساباً , لقد أدركنا الآن كم هو غالٍ ثمن صمتُنا على هذره و خيالاته ؟ فهل عرفتم الآن سبب حيرتنا و انكسارنا ؟ بالله عليكم ماذا نفعل أمام هذه الوصية ؟ هل نحققها له و هذا أمر محال ؟ أم ندفسه , عفواً خرجت هذه الكلمة من غيظي , أقصد ندفنه في مقبرة الشيخ مبارك , مقبرة القرية , بين أقاربه و عائلته ؟ يا ناس ... يا عالم ... يا أصدقاء الفقيد ... يا أهل البلدة أرشدونا ماذا نفعل ؟ ثم بالله عليكم هل يحق لنا بعد كل ما سمعتم أن نغضب أم لا يحق ؟

وقوف

وقفت بجانب الطريق السيارات تعبر أمامها مسرعة يتباطأ بعضها قليلا ثم يتابع نهب الطريق مسرعا , كنت أقود سيارتي بسرعة متوسطة و رغم أنني رايتها عن بعد مئات الأمتار إلا أنني لم أتوقف قربها , هي أيضا لم تشر بيدها طالبة الركوب , تجاوزتها عشرات الأمتار , ثم توقفت فجأة , صورة من الماضي لمعت في ذهني , عدت للخلف , توقفت قربها , تأملتها .. امرأة في العقد الخامس من عمرها , تحمل على وجهها تعب السنين و العمر و الفقر ... فتحت النافذة و سألتها :

- هل تريدين أي مساعدة ؟ ماذا يمكن أن أقدم لك ؟

تأملتني ببطء و بقليل من الاهتمام ثم قالت :

- هل أنت ذاهب باتجاه الضاحية ؟
- نعم .
- هل يمكنك أن توصلني معك ؟
- طبعا .. تفضلي .

تلكأت قليلا ثم أضافت بارتباك :

- لكن .. كما ترى معي حقيبتان و كيس كبير .

لم انتبه للأمتعة التي معها مركونة بجانب الطريق , حقيبة متوسطة الحجم و أخرى صغيرة و كيس بلاستيكي أسود اللون محشو بالأمتعة , قلت لها :

- لا بأس .. يمكنك وضعهم في الصندوق الخلفي للسيارة .

ترجلت من السيارة , ساعدتها في حمل الحقائب , جلست في المقعد الخلفي , و انطلقت بسيارتي باتجاه الضاحية . بين الحين و الآخر ألقي عليها نظرة عبر المرآة الأمامية , امرأة ترتدي جلبابا أسود و تغطي رأسها بحجاب أسود لا يظهر منها إلا وجهها , انه الزي التقليدي لسكان هذه المدينة , لكن التعب و الأسى و الشقاء بادٍ على ملامحها , لم تنبس بأي كلمة , أنا أيضا التزمت الصمت , رفعت صوت المذياع قليلا للحد من ثقل الصمت , كارم محمود يغني (مشغول عليك مشغول) , المرأة تنظر من شباك السيارة إلى التلال الجرداء بجانب الطريق , ملامحها لا تشي بأي شيء نظرة هادئة تنبعث من عينيها و كأنها شاردة تنظر إلى الأشياء و لا تراها , أنا أيضا صرت مثلها أنظر أمامي , أقود السيارة بتباطؤ , عادت بي الأفكار و الذكريات سنواتٍ و عقوداً إلى الوراء , إلى

تفاصل تلك الصورة التي برقت في ذهني فجأة , إنها صورة أمي تلك المرأة الكادحة التي أمضت عمرها كله في الشقاء و التعب و الفقر , تذكرت عندما كانت تستيقظ أمي من الصباح الباكر و تذهب مع إحدى صاحباتها لجمع الزعتر من القرى و التلال البعيدة , في أيام الربيع , كبقية النساء الفقيرات من القرى الأخرى , يجمعن الزعتر ثم يجففنه و يخلصنه من الأعواد , ثم تأتي مرحلة دقه في الجرن الحجري و تنعيمه حتى يصبح صالحا للأكل , ثم يبعنه للميسورين , لتأمين القليل من النقود , بعد رحلة التعب و البحث بين الأعشاب و الشجيرات على سفوح التلال لجمع الزعتر , يجيء وقت الانتظار على قارعة الطريق حتى تأتي سيارة تحمل تلك النسوة مع أكياسهن إلى أقرب مكان من المدينة , أذكر أن أمي كانت تحكي لنا في المساء عما جرى لها خلال جمع الزعتر , كرؤية الأفاعي مثلا أو بعض الحيوانات المفترسة و النادرة , أو الجلوس قرب نبع من الماء لتناول الزوادة , و غيرها من الوقائع , تقول :

- كنا منهكين من التعب و نسبح بعرقنا , انتظرنا أكثر من ساعة حتى جاءت سيارة يقودها رجل ابن حلال تكرم علينا و أوصلنا إلى كراجات المدينة و لم يقبل أن يأخذ أجراً , وفقه الله و بارك به و أراحه في دنياه و آخرته كما أراحنا من الانتظار و التعب . تختم حديثها بذلك الدعاء من قلبها لذلك السائق المجهول.

عشت في أسرة فقيرة جداً الأب و الأم يعملان لتوفير حاجياتنا القليلة , ألقيت نظرة على المرأة خلفي , رأيت فيها أمي و لكن بلباس مختلف , و زمان مختلف و مكان مختلف , أمي كانت ترتدي فستاناً ملوناً و منديلاً بسيطاً يغطي جزءاً من رأسها كبقية نساء الريف الفقيرات , تنبهت إلى أن أغنية كارم محمود انتهت , و المذياع صامت , حاولتُ كسرَ الصمت و سألتها :

- هل انتظرت طويلاً بجانب الطريق ؟

ردت باقتضاب :

- أكثر من نصف ساعة ,,, شكرا لك على معروفك .
- لا شكرَ على واجب – و أضفت بعتاب – لكن أنت لم تشيري بيدك للسيارات العابرة لذلك لم يتوقفوا .
- لقد تعبت يداي من كثرة التلويح للسيارات , و لكن لا أحد يقف , بعضهم يتمهل قليلا و عندما يرون الأغراض التي معي ينطلقون مسرعين .
- لكن الدنيا لا تخلو من أبناء الحلال كما يقولون .

- نعم . . أكيد لا تخلو بارك الله بك , لكن الظروف صعبة هذه الأيام , و الناس كل واحد مهتم بشؤونه .. لقد تغير الناس كثيرا و انقطعت الرحمة من القلوب ..... صمتت قليلا و أضافت : الله يفرِّجها عن العباد .
- آمين انشاالله تفرج قريبا .

عاد صوت المذياع حاملاً صوت محمد عبد المطلب في أغنية (أجمل من الذكرى) سرحت من أنغام الأغنية و حضرت صور و ذكريات الماضي البعيد كلها في رأسي , الماضي بما فيه من ألم و عذاب و شقاء , و أمي البعيدة عني الآن تفصلني عنها مئات الكيلومترات مازالت تواصل رحلة حياتها مع التعب و العمل رغم تجاوزها السبعين من العمر , مات أبي و لم يخلف لها شيئاً سوى بيتٍ بسيط و أولادٍ عاقين و فقرٍ متوارثٍ , كبرنا و انشغلنا بأسرنا و مشاكلنا و همومنا , نسينا تلك المرأة التي أفنت عمرها لرعايتنا بما أمكنها , اعتادت العمل و العطاء رغم القليل الذي تملكه , لا تهتم بما نقابلها لقاء عطائها و لو كان جحوداً من بعضنا , أخواي يسكنان معها في المنزل بعد أن وسَّعاه و أضافا إليه غرفاً قليلة , حينما أزورها تشكو لي قائلة :

- صحيح أنك مقيم في المدينة بعيداً لكنني أشعر أنك أقرب الي منهما .
- أطيِّبُ خاطرَها بكلامٍ لا قيمة له و أقول :
- يا أمي لا تهتمي بهما اهتمي بنفسك فقط لقد قدمتِ لنا أكثر مما تستطيعين و إذا احتجتي لأي شيء فأنا جاهز لا تتردَّدي بالطلب مني .

تتابع كلامها :

- تصور أخوك الكبير لا يخطر بباله أن يعرض علي المساعدة بأي شيء , لا بل يأتيني أحيانا يطلب أن يستدين مني , و لا يعيدُ ما يأخذه من مال ؟ تصور . و الآخر .... ماذا أقول عنه وضعه صعب جدا .. الحمد لله أنا لست بحاجة إليهما , و طالما صحتي بخير سأبقى أخبز على هذا التنور و أصنع المناقيش و الخبز المشروح و أبيعه للجيران , المهم ألا أحتاج لأحد , و لكن في قرارة نفسي أشعر بالحزن .

تقفُ الكلمات في حلقي و أسكتُ محاولاً تغطية تقصيري نحوها بالصمت , تكمل حديثها :

- حينما مرضت المرضة الأخيرة , أخذتني أختك و زوجها إلى المشفى , و عندما احتجت إلى عملٍ جراحي أنت و أختك تكفلتما بمصاريف العملية عوَّض الله عليكما

الليرة بألف ليرة , و انشاالله تمسك الترابَ بيدك يتحوَّل إلى ذهب , المهم عدتُ إلى البيت تصوَّر لم يكلف نفسه بزيارتي للاطمئنان علي ؟ حتى زوجته لم تقل لي الحمد لله على سلامتك ؟ ماذا أقول ؟

- لا تقولي شيئا يا أمي هذا واجبي و مهما قدمت لك لا أردُّ جزءاً بسيطاً من عطاياك لي و لنا جميعا , مددت يدي إلى محفظتي لأخرج بعض النقود أعطيها إياها .

فجأةً جاءني صوتُ المرأة من خلفي :

- انتبه أستاذ ... انتبه ... السيارة تكاد تنحرف و تخرج عن الطريق , هل أنت نائم ؟

أعدتُ يدي إلى المقود و انحرفت به إلى المسار الصحيح في الطريق , لا بد أن الأفكار شغلتني عن الانتباه إلى قيادة السيارة , لكن الحمد لله سرعتي قليلة , قلت لها :

- شكرا لك أنك نبهتني و لولاك يعلم الله ماذا كان يمكن أن يحصل معي , ربما وقع لي حادث .

ابتسمت المرأة و قالت :

- لا بد أنك متعب من العمل لذلك غفوت قليلا , الحمد لله على سلامتنا نحن الاثنين .

تكشفت ابتسامتها عن وجه كان جميلا فيما مضى , لكن التعب و البؤس أذهب نضارته , لقد كسر هذا الموقف جدار الصمت الثقيل بيننا . سألتها :

- هل أنت قادمة من سفر ؟ ماذا تحملين في تلك الحقائب ؟
- لا ... لست قادمة من سفر أنا من سكان الضاحية , سكنتها قبل عامين كنت سابقا أقيم في منطقة ... لا بد أنك تعرفها و تهجَّرنا منها تركنا كل شيء خرجنا بملابسنا ثم استأجرنا بيتا في الضاحية , كل يومين أو ثلاثة أنزل الى المدينة .. للضرورة .. للعمل .
- ماذا تعملين ؟

تنهدت بحزن صمتت قليلا ثم قالي :

- ماذا يمكن لامرأة مثلي أن تعمل في هذا الزمن الصعب ؟ كان زوجي رحمه الله يتكفل بشؤون الأسرة و لكن بسبب ما جرى أصيب بنوبة قلبية و مات من كثرة الهم و الحزن و بقيت أنا و ثلاثة أولاد مازالوا صغارا و ..... الحمد لله على كل حال .
- نعم الحمد لله على كل حال ان ما جرى لم يخطر ببال أي واحد منا , كيف تتدبرين أمورك و أمور أولادك ؟

- صاحب البيت مسافر خارج البلد و بيننا معرفة قديمة لذلك قَبِلَ أن نسكن البيت مقابل أجر زهيد و هكذا انحلت مشكلة السكن .

أضفت :

- تبقى مشكلة تكاليف و مصاريف الحياة .
- نعم و هي مهمة أيضا , هناك صديق لزوجي يملك ورشة خياطة للملابس في الحريقة كل أسبوع أقصده و آخذ بعض القطع التي تحتاج إلى تطريز و خياطة خرز و بريق يعني اكسسوارات تزيين أشتغلها في البيت و يساعدني الأولاد , الحمد لله .. كافيها الله .

أيـــــــــه يا أمي مئات الآلاف مثلك يشقون في هذه البلاد التي يتصارع فيها البشر من اجل آلهة صنعوها على شاكلتهم و أهوائهم و أمزجتهم , كنا نظن أن الفقر مشكلتنا الوحيدة لكن تبين لنا الآن أن الفقر نبع لمئات المشاكل , عادت صور الذاكرة تمر أمامي ناظري رأيت أبي بعدما تعرض لحادث سير و أصبح شبه عاجز لعدة سنوات غير قادر على القيام بأي عمل , حينها كنا صغارا نسكن غرفة بالآجار لا معين لنا و لا قريب يهتم بشؤوننا تحملت أمي المسؤولية كلها كانت في عمر يقارب عمر هذه المرأة , عملت في كل شيء قطاف الزيتون . حصاد القمح .. اقتلاع البطاطا , جمع الزعتر حتى إنها .... شعرتُ بغصةٍ في حلقي و مرارةٍ تربط لساني و فكري و أنا أتذكر كيف اضطرت للعمل في تنظيف البيوت حتى نتمكن من متابعة الحياة و كي لا نتشرد لم تقبل أن نعمل في أي مهنة كانت تقول دائما : (عليكم فقط أن تفكروا بالدراسة و التعليم عندما تصبحون في المدرسة , انظروا إلى أبيكم لو كان متعلما كان توظَّف بشهادته و حتى لو جرى معه ما جرى يبقى راتبه مستمراً معيناً لنا العلم هو ضمانة الحياة الكريمة لكم لا تنسوا هذا أبداً) .

أيـــه يا أمي بماذا قابلنا جهودك و عطاءك و عذاباتك ؟ حتى أنا ... أنا الولد البار - كما أعتبر نفسي – منذ عشرة أشهر لم أزركِ بل لم أبادر إلى الاتصال بك أنت التي تتفقدينني بين الحين و الآخر تتصلين بي للاطمئنان علي و على أسرتي , كم أنا قاسٍ و ناكرٌ للعطاء و غافل عن الواجب , يجب أن أتصل فورا عندما أصل إلى البيت سيكون اتصالي مبعثا للسعادة في قلبها و سأخبرها أنني سأمضي عطلة نهاية الأسبوع معها .

قطع خيطَ أفكاري و نواياي سؤالُ المرأة من المقعد الخلفي :

- عفوا أستاذ لم أقصد أن أتعبك معي , أكيد سببت لك الحزن و الألم حتى انك تكاد تبكي , الدموع تلتمع في عينيك أراها من خلال المرآة , شكراً لك على لطفك و معروفك بإيصالي , و آسفة على إزعاجك بهمومي و متاعبي .
- نظرت إلى وجهي في المرآة دمعتان معلقتان على جفني كجمرتين حارقتين تناولت منديلا ورقياً , مسحت عيني , نظرت أمامي أصبحنا قريبين من الضاحية , سألتها :
- - في أي قسم من الضاحية تقيمين ؟ الشرقي أم الغربي ؟
- شكرا لك أنزلني هنا على الدوَّار و أنا أتدبر نفسي .
- لا أبدا .. ربما يكون طريقنا مشتركاً أين تقيمين ؟

أشارتْ بيدٍ متعبة معروقة باتجاه الغرب , انعطفتُ بسيارتي كما أشارتْ , أنزلتُها في أقرب مكان إلى بيتها , شكرتني , تناولتْ حقيبتيها و الكيسَ الكبير عرضتُ عليها المساعدة في إيصال الأمتعة إلى البيت رفضتْ , قالت أولادها سيهرعون لمساعدتها الآن فقد رأوها من النافذة , ألقيتُ نظرة حزينة عليها و على أمي و على نفسي و على الحياة كلها , انعطفت بسيارتي و اتخذت جهة الشرق مساراً جديداً .

الفهرس

1 – تداعيات الذاكرة المطرية

2– زيارة .

3– حكي مؤجل .

4– الهروب إلى الثلج .

5– المعاملة .

7– الصبح هادئ جدا .

6 – كاتب تعداد .

8– الصفعة .

9– تغطية صحفية .

10– السالت .

11– مع الخيام .

12 – وقوف .